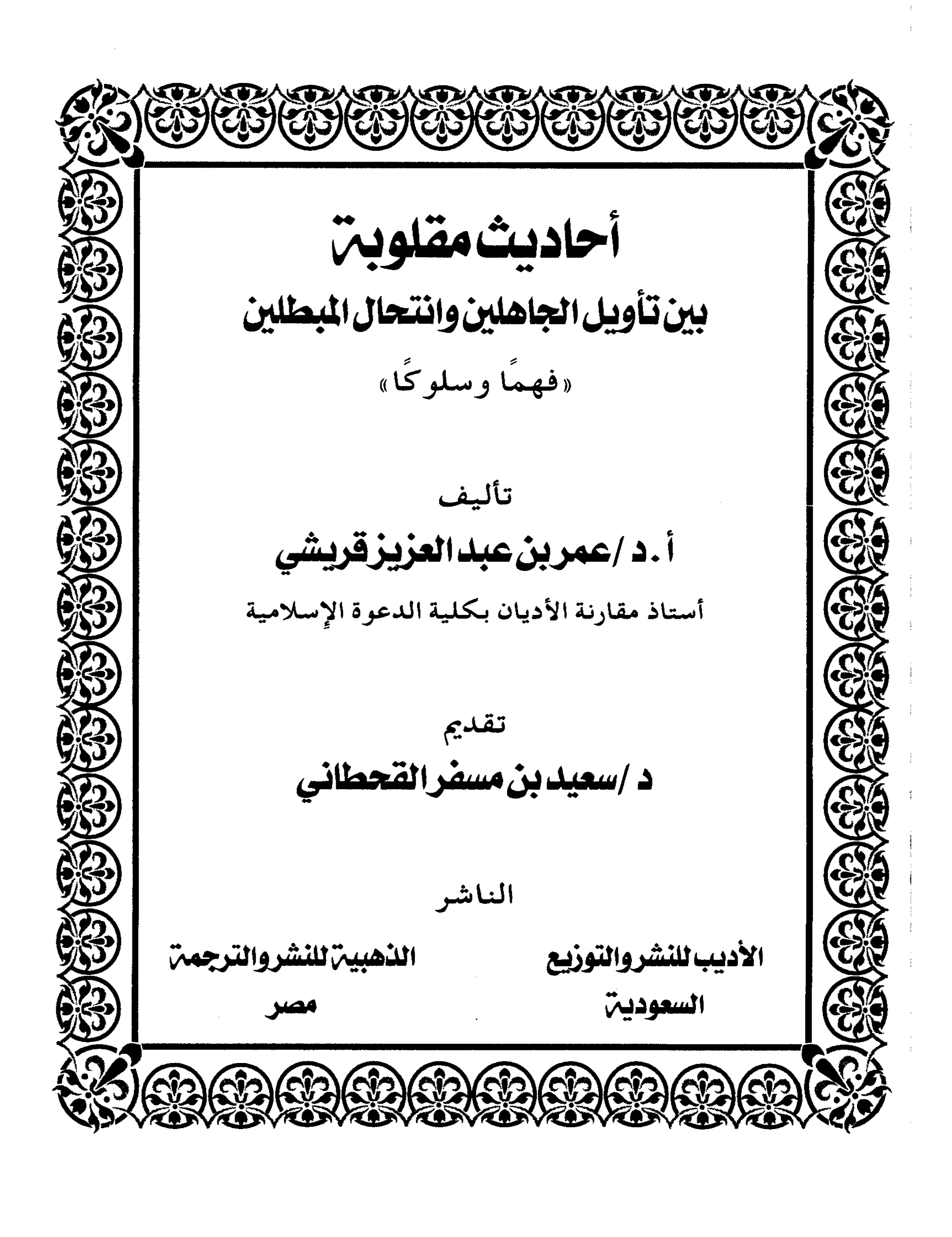


أحاديث مقلوبة

بين تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين

«فهمًا وسلوكًا»

تأليف

أ . د / عمر بن عبد العزيز قريشي

أستاذ مقارنة الأديان بكلية الدعوة الإسلامية

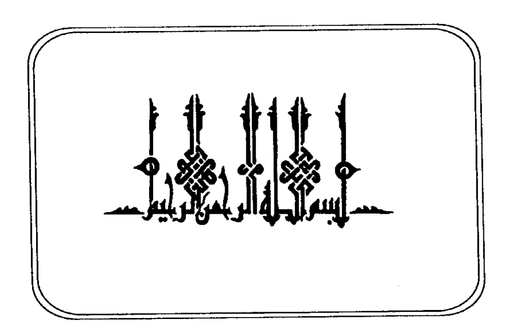
تقديم

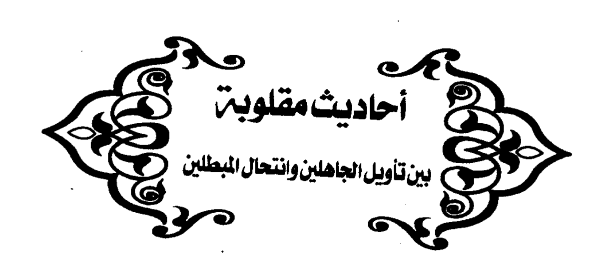
د / سعيد بن مسفر القحطاني

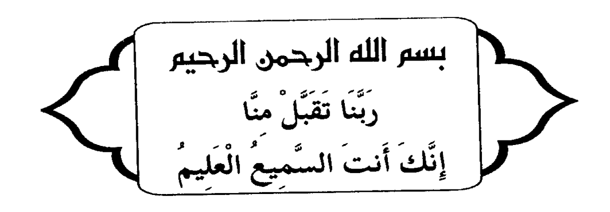
الناشر

الأديب للنشر والتوزيع
السعودية

الذهبية للنشر والترجمة
مصر


بسم الله الرحمن الرحيم


أحاديث مقلوبة
بين تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين



الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع

٢٠٠٤/١٦٣٢٨

الناشر

الأديب للنشر والتوزيع

السعودية - الرياض

حي الورود شارع م/ مساعد العنقري

ت: ٤٦٠٤٧٣٠ - جوال: ٠٥٠١٢٢٢٩١٢

الذهبية للنشر والترجمة

مصر - المنصورة

طلخا - دميرة

ت: ٢٦٢٠٣٦٠ محمول: ١٠٦٨٢٨٣٦٦

إشراف

أسامة العشماوي

مدحت أبو الذهب



تقديم فضيلة الشيخ
سعيد بن مسفر القحطاني. حفظه الله.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، وبعد:

فلقد بعث الله رسوله ﷺ، بالهدى ودين الحق الذي ارتضاه لعباده، وهو دين الإسلام الخالد، وأقام الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة على كماله وشموله وتوازنه واعتداله وضمانه لمصالح العباد في الدنيا والآخرة، وأوضح سبحانه في كتابه الكريم بأنه لا سبيل إلى السعادة ولا إلى الفلاح في الدنيا والآخرة إلا عن طريق هذا الدين العظيم، ومتابعة هذا النبي الكريم، صلوات الله وسلامه عليه.

وقد جاءت السنة المطهرة موضحة للقرآن وشارحة له وحين تلقت الأمة تعاليم الإسلام من القرآن والسنة بعد فهم مرادهما، وحقق الله لها ما وعدها من النصر والتمكين حتى دار الزمان دورته وابتعدت الأمة كثيرًا عن كتاب الله وعن سنة رسوله ﷺ وعطلت أحكام الشريعة في حياتها ونبذت تعاليمه وراء ظهرها فحل بها ما حلَّ من الذلة والصغار، والهزيمة والانحسار، لهوانها على الله بعد أن هان عليها دينها.

ومما زاد الطين بلة والكارثة ألمًا أن فهم كثير من المسلمين بعض الأحاديث النبوية فهمًا مغلوطًا أو قل مقلوبًا كما سماه صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/

أبو حفص عمر بن عبد العزيز قريشي في كتابه هذا والذي شرفني بالتقدمة له بعد أن أوضح ما اشتبه لدى كثير من الناس من المفاهيم الخاطئة لبعض نصوص الأحاديث النبوية الشريفة بحيث فهموا منها عكس ما أراد الشارع فوقعوا في الضلال البعيد، وإنني لأرجو الله عز وجل أن يسدَّ هذا الكتاب القيم فراغًا في المكتبة الإسلامية حيث لم يسبق أحد من العلماء إلى تناول هذا الموضوع الهام في حين اتخمت المكتبة الإسلامية بالعديد من الكتب والمؤلفات التي لا تحمل جديداً، ولا تطرح مفيداً سوى التكرار أو الاجترار، والشرح أو الاختصار مما أفقد الكتاب الإسلامي المعاصر حيويته، وضيَّع أهميته.

وإنني لأوصي طلبة العلم بالاستفادة من هذا الكتاب المبارك، وتناول موضوعه والأحاديث الذي تحدث عنها المؤلف بالتصحيح لدى عامة الناس في الدروس والمحاضرات والخطب والمواعظ، لبيان الحق ولإزالة اللبس.

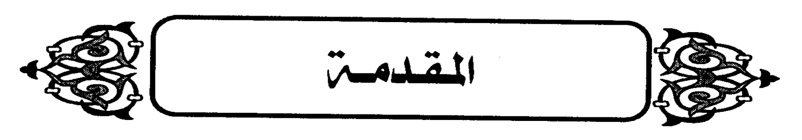
أرجو الله أن يتقبل من المؤلف هذا الجهد وأن يجعله ثوابًا في ميزانه يوم يلقى الله، وأن يجمعنا به في جنات النعيم وآباءنا وأمهاتنا وأزواجنا وذرياتنا وجميع إخواننا المسلمين.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه

كتبه

د/سعيد مسفر القحطاني

مكة المكرمة في ٧/ ٤/ ١٤٢٥هـ



المقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد:

فهذا القسم الثاني من سلسلة تصحيح المفاهيم الخاطئة، حيث كانت البداية - القسم الأول - «الآيات المظلومة بين جهل المسلمين، وحقد المستشرقين»، في جزئين، والثالث بعنوان «آيات مظلومة بأقلام مسمومة».

وهذا القسم الأول خصصته للآيات القرآنية التي فُهمتْ على غير وجهها، أو وضعت في غير موضعها، وعلى الرغم من صدور ثلاثة أجزاء لها، فإن لها بقية تأتي تِباعًا، مع الرد على كتب المستشرقين، وكذا المستغربين - إن شاء الله رب العالمين.

ولها كمٌّ هائل وكبير - عندي - يحتاج إلى وقت كثير، نسأل الله تعالى أن يهيىء لنا الفرصة لذلك.

وأما هذا القسم الثاني، فنخصصه - إن شاء الله تعالى - للسنة النبوية الشريفة، وذلك على ثلاثة فصول.

الفصل الأول منها: أحاديث صحيحة فهمت على غير وجهها وفُسِّرت على غير معناها وهي بعنوان «أحاديث مقلوبة»، وفيها خمسة عشر مبحثًا.

والفصل الثاني منها: وفيه ثلاثة مباحث:

الأول: أحاديث صحيحة ظاهرها يوهم التعارض مع آيات قرآنية.

والمبحث الثاني: أحاديث يوهم ظاهرها التعارض بين حديث وحديث، بما يمكن تسميتها بالأحاديث المتعارضة، وقد ذكرنا لها نماذج وأمثلة.

والمبحث الثالث: أحاديث يوهم ظاهرها التعارض مع العقل وكذلك لها أمثلة.

ثم الفصل الثالث: حول ما اشتهر على الألسنة من أحاديث ضعيفة، وأخرى موضوعة، وفيه مبحثان:

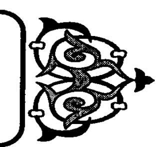
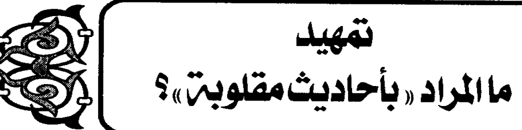
المبحث الأول: الأحاديث الموضوعة، مما اشتهر بين الناس.

المبحث الثاني: الأحاديث الضعيفة: المشتهرة التي أوقعت الالتباس.

وكانت هذه النماذج من باب بيان خطورة انتشار هذه الأحاديث، وما انبنى عليها من أحكام، أورثت الأمة الفُرقة والشقاق.

فعملاً على التئام جِراح الأمة، ورأب الصدع، نفصح عن أهم هذه الأحاديث لقرائنا الكرام؛ لتكون لبنة أخرى على طريق البناء، ولتوحيد الكلمة، وجمع شمل الأمة، والله الموفق لا رب سواه.

وكتبه
أبو حفص
عمر بن عبد العزيز قريشي

تمهيد
ما المراد «بأحاديث مقلوبة»؟

نريد بها الأحاديث المفهومة خطأ عند عامة المسلمين، أو عند علمائهم في بعض الأحيان، إنها أحاديث وضعت في غير موضعها، واستدل بها في غير مكانها، وفهمت على غير وجهها، وما ذكرت فيه ليس هو الوجه المراد منها، فتصبح - بهذا المعنى المقلوب - سببًا للهدم لا للبناء، وسببًا للضلال لا للهداية، والبعد عن الحق والصواب، مع أنها هي في ذاتها حق، ولكن ينطبق عليها - مع هذا الفهم المقلوب، والمعنى الخاطيء -: كم من حق أريد به باطل وحيث هي صدق لكن بتحريفها صارت كذبًا.

وأول جانب في هذه السلسلة هو الأحاديث الصحيحة التي فهمت على غير وجهها، ووضعت في منزلة دون منزلتها.

إنها أحاديث غاية في الصحة، ونراها في الثريا، فإذا ذكرها الجاهلون والمبطلون والمتأولون لمعناها، تراها وضعت في الثرى، وتمرغت في الوحل، من بعد الثريا والعلا، وما يفعل هذا إلا من تسفل من البشر الذين ضلوا وأضلوا وضلوا عن سواء السبيل، ويتضح هذا المعنى جليًا مع ذكر النماذج الآتية . . .

مع التركيز على تصويب الخطأ، دون التوسع في شرح الحديث والإتيان على كل جوانبه وإلا فهذا يحتاج منا إلى مجلدات، وهذا متيسر في بابه وكتبه.

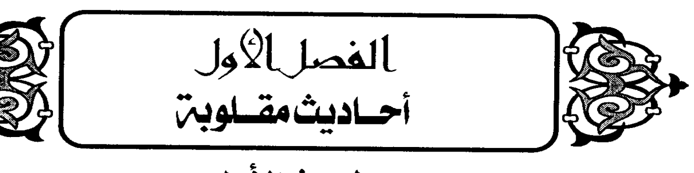
وما أردنا هذا، وإنما أردنا أن نلقي الأضواء على تلك الأخطاء، سيما الشائعة منها، وإلا فالأعداء والجهلاء توسعوا في هذا الباب توسعًا يمكن أن يأتي على كل السنة، وعلى كل الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين.





الفصل الأول

أحاديث مقلوبة



الفصل الأول
أحاديث مقلوبة

المبحث الأول

حديث: «إنمــا الأعمـــال بالنيـــات»

أخرج البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة، وأصحاب المسانيد، وبقية كتب السنة - عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[1].

هذا الحديث العظيم واحد من بين ثلاثة أحاديث عليهن أسس الدين، بل هذا الحديث على رأس هذه الثلاثة.

الحديث الأول: «**إنما الأعمال بالنيات**» والحديث الثاني: «**الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات...**»[2] والحديث الثالث: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[3] فهو إذن حديث من الصحة بمكان، ومن المنزلة بمكان، بل ومن الوضوح بمكان.

ومع ذلك فإن هذا الحديث العظيم قد فُهِم فهما خاطئًا، ووضع في غير موضعه، بصور متعددة، إن دلت على شيء فإنما تدل على جهل ذريع، وفساد مريع، كيف ذلك؟

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (بدء الوحي/ ١/ فتح)، مسلم في (الإمارة/ ١٩٠٧/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (الإيمان/ ٥٢/ فتح)، مسلم في (المساقاة/ ١٥٩٩/ عبد الباقي).

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذي في (صفة القيامة/ ٢٥١٨) النسائي في (الأشربة/ ٥٢٢٠/ كبرى) وقال الشيخ الألباني صحيح كما في «الإرواء» (٢٠٧٤).

إليك بعض الأمثلة لفهم الحديث فهمًا خاطئًا:

هناك مسلمون لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا رسمه، فإذا دعوتهم، أو أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر، قالوا لك: إنما الأعمال بالنيات.

فَهُمْ لا يعملون البتة، ولا يعرفون إخلاص النيات، ومع ذلك يقول: إنما الأعمال بالنيات، أو يقول لك: العبرة بالقلب، وأنا قلبي أبيض، وربك رب قلوب!!

وهذا رجل لا يصلي، ويزعم أن قلبه أبيض، وإنما الأعمال بالنيات، فأين العمل حتى نبحث عن النية؟

وهذا يصلي، ولكنه لا يحسن الصلاة؛ لأنه يستحيي أن يسأل، أو يتكبر أن يتعلم، فيصلي كيفما اتفق، ويقول: إنما الأعمال بالنيات.

ومسلم يخالف الأحكام الشرعية، فيوالي الكفار، ويعادي المسلمين، ويقول: إنما الأعمال بالنيات، ورجل يسلّم على المرأة ويصافحها وربما يقبلها، ويقول: أنا نيتي طيبة، والكلام على النية.

وامرأة لا تتحجب بحجاب الإسلام، وتعيب عليه، وتعتبر الحجاب خيمة، والنقاب «عفريتة»، وتقول: الدين ليس بالمظاهر ولا بالأشكال، وإن الله لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم، والنية ما دامت حسنة، فليس هناك مشكلة، كما ترى أناسًا يقعون في ألوان من الشرك، كالذين تجدهم عند أضرحة الأولياء والصالحين يقبلون الأعتاب، ويتبركون بالأخشاب، ويتمسحون بالأبواب، كما يطوف وينذر ويدعو ويستغيث... إلخ، ثم يقول: ما قصدتُ عبادة الولي، ولا أردت الشرك بالله، وإنما نيتي لله، وما عبدت غير الله، وإنما الأعمال بالنيات.

وهذا يلغو ويلغط، ويحلف بغير الله، ويكذب ولكنها كذبة بيضاء، وإنما الأعمال بالنيات وهنالك أمثلة كثيرة جدًا، على تلك الشاكلة والصور المتنوعة، ليست متوهمة وإنما هي حقيقة واقعة، وأمور رأيناها من خلال حياة الدعوة، تصب في هذا المعنى، وكأن النبي محمد ﷺ قال هذا الحديث ليكون تبريرًا لأخطاء

الناس، ودفاعًا عن شركياتهم ومعاصيهم، ولمحو أقذارهم، ومسح أوساخهم!!

لا.. يا قوم، كيف نحن ننزل بحديث النبي ﷺ من عليائه ليتمرغ في الوحل والطين، فهذا الذي قالوه، مقلوب تمامًا، ولا يصح منه شيء، وما أراده الرسول ﷺ أو قصده ولكن قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**» الحديث.

«إنما» أداة حصر وقصر، «إن» منها: حرف توكيد ونصب، وما: كفتها عن العمل، «الأعمال بالنيات» كلمتان، مبتدأ وخبر، فالأعمال مرتبطة بالنية، والنية قرينة العمل والأعمال لابد وأن تكون صحيحة، والنيات لابد أن تكون خالصة.

ولذلك جاء بعدها «**وإنما لكل امرئ ما نوى**» فهي مؤكدة ومفسرة لما قبلها.

وأما مثالها: من أخلص: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله».

ومن لم يخلص: «ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فالأول صوّب العمل وأخلص النية، فقُبل عمله؛ لأن ذلك أساس العمل.

وأما الثاني وإن كان قصد صواب العمل لكنه لم يخلص النية فصار عمله مردودًا عليه، فكيف بمن لم يعمل أصلاً، أنى له أن يستدل بالحديث، أو الذي عمل ولم يخلص نيته، أو أخلص نيته ولم يصوب عمله، فكل أولئك نجد الحديث حجة عليهم لا لهم.

فالحديث يركز على أمرين: أن تكون الأعمال صحيحة، وأن تكون النيات خالصة.

ودليل ذلك من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فيما يتعلق بإخلاص النيات، قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...**﴾ [البينة: ٥] وفيما يتعلق بصحة الأعمال، قوله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[١] وكذلك قوله ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**»[٢].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الأذان/ ٦٣١/ فتح).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في (الحج/ ١٢٩٧/ عبد الباقي).

وبناء عليه: ما مدى صحة صلاة رجل جعل نيته أن يرائي الناس ليقولوا عنه: إنه مصلٍ أو تقي؟

وما مدى صحة صلاة رجل لم يعرف عدد ركعات الصلوات، أو راح يقرأ الفاتحة فلحن فيها لحنًا جليًّا...؟

لا تصح وإن كانت النية خالصة، كما لم تقبل صلاة الأول مع صحة صلاته، وذلك لفساد نيته، وقِس على ذلك بقية عبادات الإسلام.

فكما ضربنا المثل بالصلاة، فقل مثل هذا في الزكاة والصوم والحج وسائر العبادات والمعاملات.. كمن نذر لله، ولكن في مكان ينذر فيه لغير الله، فإنه لا يصح، أو جعل نذره لغير الله كمن نذر لولي من الأولياء، مهما كانت خالصة!!

أو هذا الذي ذهب إلى الحج دون أن يتعلم نسك الحج، فترك شيئًا من الأركان، أو وقع في شيء من محظورات الإحرام، أو قصر في شيء من الواجبات دون أن يكفّر عنها بالذبح أو الصوم أو الإطعام، فما مدى صحة حج هؤلاء؟! هل تسعفهم النية أو صح حجهم، ولم يخلصوا نيتهم، وإنما أرادوا أن يشتروا لقبًا أو أرادوا اسمًا وسمعة؟! إلى غير ذلك من الأمثلة التي تدل على أنه لابد من إخلاص النية وصواب العمل كما قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣].

فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا له وحده، فإذا جعلته لله، ثم جعلت لغيره فيه شيئًا، قلّ أو كثُر، عظم أو حقر - كمن قرب لغير الله «ذبابة»، أو قال هذا الشيء لله، ولفقراء الحسين، أو مريدي السيد البدوي، أو نحو هذا، فإن الله تعالى يقول - في الحديث القدسي: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك»**[1].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (الزهد/ ٢٩٨٥/ عبد الباقي).

كما يذكر هنا الحديث الذي نحن بصدده «**إنما الأعمال بالنيات...**» الحديث.

وكذلك قال الله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾[الملك: ٢] وقد سئل الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - عن الآية: ما أحسن العمل؟ قال: أخلصُه وأصوبُه، قيل: يا أبا علي: ما أخلصه وما أصوبه؟ قال: إخلاصه أن يبتغى به وجه الله تعالى وحده، وصوابه أن يكون على سنة النبي ﷺ.

ثم قال: فأيما عمل كان خالصًا ولم يكن صائبًا فهو مردود، وأيما عمل كان صائبًا ولم يكن خالصًا فهو مردود، فلابد أن يكون خالصًا صائبًا.

وهذا الذي قاله الله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ١١٠] فالعمل الصالح هو الصحيح، وعدم الشرك في العبادة بإخلاص النية لله تعالى، ولذلك قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الأصغر**، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ **قال: الرياء**»[١].

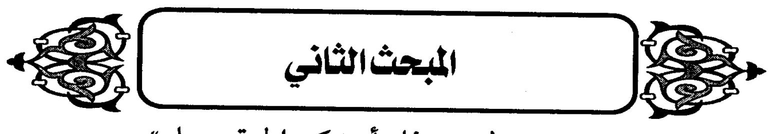
- نعوذ بالله تعالى من الرياء، ونعوذ بالله من العجب والغرور، ونعوذ به من أمراض القلوب، ومن أمراض البدن أيضًا، كما نعوذ بالله تعالى أن نشرك به شيئًا نعلمه، ونستغفره لما لا نعلمه - وهذا الحديث العظيم «**إنما الأعمال بالنيات..**» دل على حال رجل هاجر مع الصحابة، ولكن نية الهجرة لزواج امرأة، تدعى «أم قيس»، وصاحبها عرف بمهاجر أم قيس، ولما لم تكن النية لله خالصة قال فيه النبي ﷺ: «.. **ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**» وعدم التكرار هنا - كما هو في الأول - من باب التحقير، فالحديث يصوب الأخطاء، ويدعونا لإخلاص النيات، ولا ينبغي

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٣١١٩) وهو في «صحيح الجامع» (١٥٥٥).

قلب الحديث رأسًا على عقب، فيقال لكل مَنْ أخطأ في عمل، وكل من أشرك في نيته: لا عليك، ولا تبالي، «**إنما الأعمال بالنيات**» فاللهم أخلص نياتنا، وأصلح أعمالنا، بفضلك ومَنِّك وكرمك يا رب العالمين.

* * *



المبحث الثاني

حديث: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**لن يدخل أحدكم عمله الجنة**» أو قال: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[1] أو كما قال ﷺ.

هذا الحديث فهمه قوم فهمًا مقلوبًا، حيث تركوا العمل وأهملوا العبادة، مادام ذلك ليس سببًا في دخولهم الجنة!!

وإذا أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر قال لك: القضية ليست قضية عمل، ولا يدخل أحد الجنة بالعمل، كما أن الدين ليس بالمظاهر، ولا حتى بالصلاة والصوم أو غير ذلك وإنما نحن جميعًا - أمة النبي محمد ﷺ - سندخل الجنة بفضل الله وبرحمته، ثم بشفاعة النبي محمد ﷺ، وليس بالأعمال!!!

أقـول: كيف بنا إذا فهمنا الحديث بهذا الفهم السقيم، والأمر المقلوب، والعلم المكذوب؟!

إذن فما الداعي للطاعة، وما الداعي للعمل؟!

وإذا كان الأمر كذلك فما معنى قول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ٤٢-٤٣].

بماذا دخلوا الجنة؟ ﴿ **... بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (المرضى/ ٥٦٧٣/ فتح)، مسلم في (صفة القيامة/ ٢٨١٦/ عبد الباقي).

وهل هناك تعارض بين الآية والحديث؟ حيث إن الآية بَنَتْ دخول الجنة على العمل، والحديث نفى ذلك، والإجابة: كلا، لمن فهم الأمر.

فالآية تحدثت عن السبب، والحديث ذكر ما وراء السبب، حتى لا يعتمد عليه، وكلاهما لا يغني عن الآخر، إنك تأخذ بالأسباب، وتعتمد على رب الأسباب، فإذا تركت السبب وقعت في المعصية، وإذا اعتمدت على السبب وقعت في الشرك؛ ولذلك قالوا: الأخذ بالأسباب واجب، وتركها معصية، والاعتماد عليها شرك، فالآية ذكرت السبب، والحديث يدعوك إلى اليقين على الله، لا على الأسباب، لأن الأسباب وحدها لا تجدي، فأنت تأخذ الدواء، ولكنك ترجو من الله الشفاء، أو تأكل الطعام، أو تشرب الماء، فلا الماء بذاته يروي، ولا الطعام يشبع بنفسه، ولا الدواء يكون منه الشفاء، وإنما هي الأسباب، ومن وراء الأسباب رب الأسباب - سبحانه وتعالى - الذي منع النار أن تحرق «إبراهيم» وإلا فهي تحرق، ومنع السكين أن تذبح «إسماعيل» وإلا فهي تذبح، كما منع الماء عن السيولة والجريان لسيدنا «موسى»، وإلا فطبيعته السيولة والجريان.

والأسباب وحدها لا تفعل شيئًا، إنما الأمر كله لله، وهو الذي أمر بأن نأخذ بالأسباب كسنن جارية ثابتة - بعيدًا عن السنن الخارقة التي تأتي كمعجزات أو كرامات - ومع الأخذ بالأسباب يكون الاعتماد على رب الأسباب - سبحانه وتعالى - .

فالأسباب لا توصل إلى النتائج بذاتها، وإنما بفضل ربها.

فجاءت الآية تذكر جانب الأسباب ﴿ **وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[الأعراف: ٤٣]، وجاء الحديث يعطيك شحنة إيمانية من أجل أن يكون اليقين على الله تعالى، لا على الأسباب، فقال ﷺ: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله: قال: ولا أنا**» على الرغم من منزلته ﷺ

ومكانته، وعظيم عبادته وأعماله بل الأمة كلها من أولها إلىٰ آخرها في ميزان حسناته ﷺ، ومع ذلك قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**».

هذا درس في اليقين، يجب أن نتعلم أن الأمر كله لله، وأنه ليس لك من الأمر شيء، وأن دخول الجنة وإن كان بفضل الله تعالىٰ، لكن الناس في الجنة درجات ومنازل، وهذه لا شك أنها مرتبطة بالأعمال، فمنهم السابق، ومنهم اللاحق، من هو في أعلىٰ الدرجات، ومن هو دون ذلك، فالجنة درجات، كما أن النار دركات.

فإذا كان دخول الجنة بالفضل، فمنازل الناس في الجنة بالعدل.

فهذا جانب في معنىٰ الحديث، وإلا فهناك جانب آخر، ومعنىٰ آخر لا ينسىٰ.

يا ابن آدم، لك أعمال، ولله عليك نعم، وأنت عبد، عليك واجبات، والله رب له عطاءات، فما أعمالك مهما بلغت إذا قيست إلىٰ نعم الله - عز وجل - عليك؟! أوَلَيس ما تفعله تجازىٰ عليه بالنعم في الدنيا، ثم تأتي الجنة بفضل الله وحده، يا هذا.. لو أنك صمت النهار وقمت الليل، وألهمت التسبيح كما تلهم النفس...

فهل هذا يوازي نعمة واحدة من نعم الله عليك، كنعمة الصحة، أو كنعمة البصر؟ لا والله، فكيف بباقي النعم؟ ثم كيف بالجنة من فوق ذلك؟!

وهل لك في قصة عابد بني إسرائيل الذي أراد أن يدخل الجنة بعمله عبرة؟

حيث وزنت كل أعماله الصالحة فلم تكافيء نعمة عين واحدة، فضلاً عن بقية النعم!!

نعم: لن يدخل أحدكم الجنة بعمله.

لأن العمل، كمقابل للجنة بغض النظر عن النعم الدنيوية - فهو كمن أراد أن يشتري قصراً، ويملك فلساً، فما الفلس إلىٰ القصر؟ أيصلح أن يكون ثمناً؟!

أما إذا تفضل عليك صاحب القصر، وأعطاك إياه بما معك مهما قل؛ لأنك

بذلت جهداً، وهذا هو كل ما تملك، ولا حيلة لك سوىٰ ذلك.

فهذا هو فضل الله تعالىٰ ورحمته، من بعد ما استنفذت ما تستطيع من الأسباب وعملت قدر الوسع والطاقة، هنا يقول الله تعالىٰ: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]. إذن تؤدي الذي عليك، وتتوكل علىٰ ربك.

أما أن تنام، وتقول يا رب أدخلني الجنة بفضلك! لا.. هذا ليس صحيحًا، بل هو فهم مقلوب، وفقه إبليس، وضلال وإضلال.

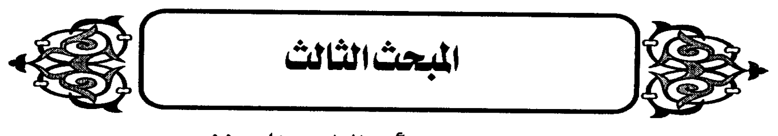
فيا عبد الله، أنت لا تريد شقة، وأنت لا تملك مقدم إيجارها، ولا تريد قصراً وأنت لا تملك ثمنه، أو تريد عروسًا وأنت لا تملك مهرها.

إنما أنت تريد الجنة «**ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**» فهلا من مشمر لها؟ وهلا من مقدم المهر لعروسه في الجنة، وهلا فيكم من أعد الثمن لتلك السلعة الغالية.

فاعمل ولا تنظر إلىٰ عملك؛ وإنما اجعل يقينك علىٰ ربك.

وكن علىٰ يقين بأنه لن تدخل الجنة بعملك، وإنما بفضل ربك، ورحمة إلهك، وانظر إلىٰ نعم الله عز وجل عليك، وشمر عن ساعد الجد، فإن الأمر جد لا لهو ولا هزل، واترك البطالة والكسل، ولا تغتر بالأماني، ولا تقل نحسن الظن بالله، مع ترك العمل وطول الكسل، فإن قومًا غرهم الأمل، وقالوا نحسن الظن بالله، ولو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

هيهات هيهات فليس الإيمان بالتمني ولا بالتلهي ولا بالتحلي، كما أن الجنة ليست بالأماني، وعجبًا للجنة نام طالبها، وللنار أسرع إليها هاربها، فالله الله فهذا دين، وهذا كلام خاتم النبيين، وإمام المرسلين، فأحسنوا فهمه، ولا تسيئوا معناه، فيكبكم الله في النار ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].



المبحث الثالث

حديث: «من أم بالناس فليخفف»

أخرج الإمام مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أم بالناس فليخفف**» أو قال: «**إذا أم أحدكم الناس فليخفف - فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة**»[1] أو كما قال ﷺ.

هذا حديث صحيح - كما ترى - ولكن أساء الناس فهم هذا الحديث، الذي ارتبط بأعظم فريضة من فرائض الإسلام، ألا وهي الصلاة، وحدث سوء الأدب في المساجد وارتفعت الأصوات، ووقع الخلاف، بسبب الفهم الخاطئ لهذا الحديث.

فما يكاد يوجد إمام يطمئن في صلاته بعض الشيء، إلا وقد أنكر الناس عليه، واحتجوا عليه بالحديث، ظنًّا منهم أن التخفيف - الذي ذكر في الحديث معناه - : نقر الصلاة، أو السرعة وعدم الطمأنينة في الصلاة، والإنكار على الإمام إذا خالف ما اعتاده الناس من السرعة، وهل هناك إمام - في زماننا - يطيل الصلاة حتى ننكر عليه؟!

كيف حال الناس في صلاتهم؟ وكيف حال الأئمة في صلاة التراويح؟

أمور من المضحكات المبكيات، وتسمع عن الإمام «البولمان» و «الإكسبريس»!!

والذي يقرأ الآية في الركعة، والآية كلمة، فإن زادت قالوا أطلت بنا يا

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الأذان/ ٧٠٣/ فتح)، مسلم في (الصلاة/ ٤٦٧/ عبد الباقي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إمام، وأين التخفيف؟! ووراءنا الأعمال، ومنا المريض، والمسن، فأين أنت من الحديث؟!

والعجب أنني لم أجد أحدًا من المسلمين ـ متعلمًا كان أو جاهلاً ـ إلا يحفظ هذا الحديث، فإن لم يحفظه بنصه، قاله بمعناه، وربما تلفظ به بطريقة مضحكة.

وكأني بهؤلاء الذين حفظوا هذا الحديث لم يحفظوا غيره في هذا الباب.

فأين هم من حديث النبي ﷺ: «**أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته**» قالوا: وكيف يسرق من صلاته يا رسول الله؟ قال: «**لا يقيم صلبه في ركوعه وسجوده**» أو قال: «**لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده**»[1].

وأين هم من حديث «المسيء في صلاته» حيث «دخل رجل فصلى ثم سلم على النبي ﷺ ـ فرد عليه، ثم قال: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**»، ففعل ذلك، ثم جاء إلى النبي ﷺ ـ فسلم عليه، فرد النبي ﷺ عليه، ثم قال: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**»، ففعل ذلك، ثم جاء وسلم، فقال له النبي ﷺ: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**»، فقال يا رسول الله: فداك أبي لا أحسن غير هذا، فعلمني، فقال النبي ﷺ: «**إذا توضأت فأسبغ الوضوء، وإذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم اجلس حتى تعتدل جالسًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها**»[2].

بل أين الناس من هذا الحديث ـ الذي نحن بصدد شرحه ـ «**من أم بالناس فليخفف..**»؟

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٣١٠)، (٢٢١٣٦)، الدارمي في (الصلاة/ ١٣٢٨) وهو في «صحيح الجامع» (٩٨٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الأذان/ ٧٥٧/ فتح) مسلم في (الصلاة/ ٣٩٧/ عبد الباقي).

هل عرفوا مناسبة الحديث؟ هل عرفوا معنىٰ التخفيف؟ هل رأوا تخفيف النبي - ﷺ - الذي أمر بالتخفيف، كيف هو؟

أم أن القضية مجرد رفع أصوات؟ والكل يفتي في الدين مع الجهل! أو قل: «يفت»!! وفهم الحديث بما يتناسب مع الهوىٰ، وفهم الدين بما يتمشىٰ مع المزاج!!

لا، بل ينبغي معرفة الدين معرفة صحيحة، وفهم الحديث بطريقة غير مقلوبة، ولو قصر الناس في التطبيق، لا يحرفون الكلام عن معناه ولا عن مواضعه، كما ينبغي علىٰ من يجهل أن يتعلم، ومن لم يعرف أن يسأل، «**وإنما شفاء العي - الجهل - السؤال**»(١).

فالحديث الذي بين أيدينا، له مناسبة تبين معناه وتحدد المراد منه، وهي أن النبي ﷺ اختار «معاذ بن جبل» إمامًا لقومه، حيث كان يحفظ كتاب الله تعالىٰ، كما كان يعلم السنة، وهو - رضي الله عنه - أعلم الأمة بالحلال والحرام.

وحيث قال النبي ﷺ: «**يؤمكم أقرؤكم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمكم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمكم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء، فأكبركم سنًّا**»(٢).

وحيث استجاب «معاذ» لأمر النبي ﷺ، كانت له رغبة في الصلاة خلف النبي ﷺ فكان يجمع بين الأمرين، يلبي رغبته بالصلاة خلف رسول الله ﷺ، ثم يذهب ليؤم قومه، فكانت له نافلة، ولهم فريضة - وهو دليل الإمام الشافعي علىٰ صحة صلاة المفترض خلف المتنفل - وذات ليلة صلىٰ «معاذ» خلف النبي ﷺ، صلاة العشاء الآخرة، والتي كان يؤخرها ﷺ إلىٰ ما شاء الله، وقد قال في

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في (الطهارة/ ٣٣٦) وهو في «صحيح الجامع» (٤٣٦٢).
(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في (المساجد/ ٦٧٣/ عبد الباقي).

ذلــك «**لولا أن أشق على أمتي لأمـرتهم أن يؤخروا العـشاء إلى ثلث الليل أو نصفه**»(١) وما كانت تقام الصلاة إلا وقد غلب على ظن النبي ﷺ أنه لم يبق من أصحابه أحد لم يأت، أو حين لا يسمع خفق نعل، ويطيل الركعة الأولى على ما سواها، حتى لا تفوت تكبيرة الإحرام أحدًا من الصحابة، فإذا تمت الصلاة، انصرف «معاذ بن جبل» رضي الله عنه، ليذهب إلى قومه، وقد جلسوا للصلاة ينتظرون إمامهم، و «**المرء في صلاة ما دام في انتظار الصلاة**» فإذا وصل «معاذ» مسجد قومه: فكم ذهب من الليل، وكم انتظر قومه، وبعد كل هذا هو يصلي بهم العشاء فيقرأ بسورة «البقرة» كاملة!!

وحيث أطال «معاذ» رضي الله عنه - كل هذا، تخلف رجل عن صلاة الجماعة، فقيل له: أنافقت يا فلان - أي بترك الجماعة؟

قال: ما نافقت، ثم شكا الأمر إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الجماعة من أجل «فلان» - يعني معاذًا رضي الله عنه - يفعل كذا وكذا، فقال النبي ﷺ لمعاذ: «**أتفعل هذا؟**» قال: نعم. وهنا أراد النبي ﷺ أن يعلمه ويؤدبه ويهذبه، فأمسك ﷺ بتلابيبه، وقال له: «**أفتان أنت يا معاذ، أفتان أنت يا معاذ، من أم بالناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة**»(٢).

الله أكبر: هكذا ورد الحديث، وهنا جاء الأمر بالتخفيف، متى؟ مع قراءة سورة البقرة كاملة في صلاة العشاء، أو صلاة الغداة، بِغضٍّ النظر عن بقية صور التأخير، سورة البقرة التي هي مائتان وست وثمانون آية، وفي صلاة واحدة من جنس الفريضة، ولو صلى بها في قيام ليلة لكانت طويلة - ما لم

(١) انظره في البخاري في (المواقيت/ ٥٧١/ فتح).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الأذان/ ٧٠٥/ فتح) مسلم في (الصلاة/ ٤٦٥/ عبد الباقي).

يصل وحده أو بمن يوافقه ـ فكيف في صلاة مفروضة؟

فهل هناك من يصلي بالبقرة في صلاة العشاء أو الفجر، فنقول له: من أم بالناس فليخفف؟

وهل هناك من يقرأ سورة كاملة من السبع الطوال أو المثاني والمئين، فنأمره بالتخفيف؟

إن الأمر قد بلغ بالناس ما لو صلىٰ بهم الإمام بقصار السور لطالبوه بالتخفيف!!

ولو راح يقرأ سورة «الفيل» لقالوا له: من أم بالناس فليخفف، فإذا قال لهم: هذا لمن قرأ بسورة البقرة، لوجدت من يقول له: وهذه سورة الفيل، والفيل أكبر من البقرة!!!

فأين «معاذ» الذي تأمره بالتخفيف في زماننا؟ وأين الإمام الذي يطيل فنأمره بالتخفيف؟!

ولئن كان هذا فعل «معاذ» وتصويب النبي ﷺ له، وأمره بالتخفيف، كما في هذه المناسبة فكيف هديه ﷺ هو، حيث أمر بالتخفيف؟

من ذلك ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كانت تقام الصلاة علىٰ عهد النبي ﷺ، فيذهب الذاهب إلىٰ البقيع ويقضي حاجته، ثم يتوضأ، ثم يدخل الصلاة، ورسول الله ﷺ في الركعة الأولىٰ مما يطولها»[1].

الله أكبر.. ما هذا يا قوم؟ أسمعتم هذا الحديث وفهمتم معناه؟ هل تقارنون بين هذه السنة وما يحدث في زماننا الآن؟!!

فما يفعل هذا الفعل في زماننا أحد إلا وقد انتهت الصلاة، أو ربما أغلق المسجد بانتهاء الصلاة فرضًا ونفلاً!!

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (الصلاة/ ٤٥٤/ عبد الباقي).

ومن هديه ﷺ أنه كان يقرأ السورة القصيرة في الركعة الواحدة، والسورة الطويلة فيجعلها في الركعتين ولم يحفظ عنه[1] ﷺ القراءة ببعض آياتٍ لا من وسط السورة ولا من آخرها بل يتم السورة على كل حال، إن كانت طويلة فعلى الركعتين، أو قصيرة ففي الركعة الواحدة، وهذا أيضًا من التخفيف الذي قاله ﷺ وأمر به.

ومن هديه ﷺ كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بسورة «الصافات» ومعناه أن سورة الصافات - وهي قرابة حزب - هي من التخفيف كذلك؛ لأنه لا يمكن أن يأمر النبي ﷺ بالتخفيف ويفعل خلافه!!

ومن هديه ﷺ في قراءته، أنه كان ﷺ في صلاة الصبح يطيل القراءة عما سواها، فيقرأ ما بين الستين إلى مائة آية، أو إلى مائتي آية.

يقرأ فيها بأمثال سورة الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون، ويواظب في فجر الجمعة على سورتي السجدة والإنسان، وإذا كان في سفر كانت قراءته فيها خفيفة، مثل أن يقرأ فيها بسورة الزلزلة.

وإذا كانت صلاته في الحضر خفيفة يقرأ في صلاة الفجر بسورة «ق» وأمثالها.

فأطول قراءة كانت في صلاة الفجر، ثم كانت صلاته بعد إلى تخفيف، أي بعد الفجر، وهي صلاة الظهر التي كان يقرأ فيها ﷺ بنحو ثلاثين آية بسور كسورة البروج والطارق والأعلى والغاشية والفجر والبلد ونحو ذلك.

وأما صلاة العصر فعلى النصف من الظهر إذا طالت، ومثلها إذا قصرت، ويقرأ فيها بنحو خمسة عشر آية، وبنحو سورة التين والعلق والبينة وغير ذلك.

وأما صلاة المغرب فلم تكن على شاكلة واحدة، حيث قرأ فيها ﷺ من السبع الطوال مثل سورة الأنعام، والأعراف، فرقها على الركعتين، وكذا قرأ

(١) إلا ماورد عنه ﷺ أنه كان يصلي سنة الفجر بـ« قولوا آمنا بالله» ومثيلتها في آل عمران كما أنه قرأ في سورة المؤمنون حتى وصل إلى ذكر هارون وموسى فأخذته سعلة فركع راجع صفة الصلاة.

فيها من المئين مثل سورة الصافات، وقرأ فيها بالدخان، ومن المفصل قرأ فيها بالمرسلات، وبالطور وبالبينة وبالزلزلة، وكذا بالكافرون والإخلاص، وبالمعوذتين.

وأما صلاة العشاء فكان ﷺ يقرأ فيها من المفصل، وخاصة من أوسطه، فيقرأ فيها بمثل الصف والجمعة، والمزمل والمدثر، والتكوير والانفطار، والشمس والليل، ونحو هذا، وما ترك ﷺ سورة من المفصل إلا قرأ بها في الفريضة، أما عن النافلة، وكيف كانت قراءته ﷺ - فحدث ولا حرج.

حتى إنه قرأ - مرة في ركعة واحدة بسورة البقرة والنساء وآل عمران أي في قيام الليل.

ولئن كان هذا هديه ﷺ في قراءته، فكيف هو في ركوعه وسجوده وبقية صلاته لم تكن أقل من قراءته، بل كان هناك تناسق وتقارب بين قراءته ﷺ وركوعه ورفعه من الركوع وسجوده وجلوسه، فكان هذا قريبًا من قيامه وقراءته ﷺ فانظر إلى ركوعه وما يقول فيه من تسبيح وأذكار، ورفعه وكيف يطيل الوقوف بعد الرفع من الركوع حتى يقول الصحابة: لعله نسي، وهو في ذلك يثني على ربه بما هو أهله، وقل مثل هذا وأكثر منه في السجود، يسبح ويثني على ربه، ويدعو طويلاً، فإذا جلس بين السجدتين أطال الجلوس حتى يقول الصحابة: لعله نسي وهذا أنس بن مالك رضي الله عنه: وقد أدرك عهد «عمر بن عبد العزيز» فكان يقول: ما رأيت أحدًا أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الغلام - يعني عمر بن عبد العزيز - يقول: فحزرنا - أي عددنا - له في ركوعه وسجوده عشر تسبيحات.

عشر تسبيحات بخلاف الأذكار والأدعية الواردة في السنة، وهذا من التخفيف، فهذا غيض من فيض من هديه ﷺ في قراءته وصلاته، فهل يمكن أن نفهم منه ما معنى التخفيف؟ وما مقدار التخفيف؟

حتى يفرق الناس بين التخفيف والنقر في الصلاة، وبين التخفيف والعجلة فيها، فنحن بهذا نقر بالتخفيف ولا ننكره، ونقول: إن من ينكر التخفيف جاهل بالسنة، ولكنه التخفيف مع الإتمام والطمأنينة، كما قال أنس رضي الله عنه: «ما رأيت صلاة أخف ولا أتم من صلاة النبي ﷺ»(١) نعم تخفيف ولكن مع الإتمام.

وقد جاء في معناه أنه أخف قراءة، وأتم في الأركان لا يتعجل ولا ينقرها نقر الغراب والديكة!! فإذا علم هذا فلا مجال للخلاف والصياح والطنين والضجيج وكذا الأنين!!

فأين نحن من صلاة النبي ﷺ وصلاة أصحابه والتابعين!! ومع ذلك نقول:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

وذلك حتى تؤدي الصلاة ثمرتها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

أما الذين ينقرون الصلاة، فينطبق عليهم المثل: يصلون الفرض وينقبون الأرض! حيث لا ثمرة للصلاة ولا فائدة، ومن ثم لم تنهه عن الفحشاء والمنكر.

واحذر أن تكون كالمسيء في صلاته، الذي قال له النبي ﷺ: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**»(٢).

وامتثل حديث نبيك ﷺ «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»(٣).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الأذان/ ٧٠٨/ فتح)، مسلم في (الصلاة/ ٤٦٩/ عبد الباقي).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الأذان/ ٧٥٧/ فتح) مسلم في (الصلاة/ ٣٩٧/ عبد الباقي).
(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الأذان/ ٦٣١/ فتح).

واعلم أن روح الصلاة هو الخشوع، وهو سبب الفلاح ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] وأن الطريق إلى الخشوع يبدأ بالطمأنينة مع التمام.

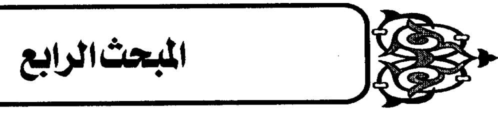
واعلم أنك مهما اطمأننت في صلاتك أو أطلت فهي دقائق معدودة لكل فريضة، حتى إنك لو حسبت ما تستغرقه الصلوات الخمس كما نفعله نحن الآن، ولو في جماعة فلا تجدها اكتملت ساعة، مع أنك تقول: ساعة لقلبك وساعة لربك!!

فهلا أعطيت ربك اثنتي عشرة ساعة أم أنها تقلصت إلى تلك الساعة؟!!

فاطمئن ولا تعجل، واطمئن في صلاتك، ولا تسبق الإمام ولا تساوه، فأنت لن تسلم قبله، وما الداعي لكل هذه العجلة، والموت قادم، قد وقف على الأبواب، فاعمل لنفسك عملاً ينفعك غداً، واجعل على رأسه الصلاة، إذ هي أهم أركان هذا الدين.

ولعلك الآن فهمت الحديث وأدركت شيئًا من فقهه، ونسأل الله تعالى أن يفقهنا في الدين، وأن يعلمنا التأويل ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

* * *



المبحث الرابع

حديث: «من سن في الإسلام سنة حسنة..»

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»**[1].

هذا الحديث الصحيح، والواضح كذلك، فهمه كثير من الناس - ممن ابتلوا بالأهواء والبدع - فهمًا مقلوبًا، حيث فهموه على غير وجهه، وفسروه على غير المعنى المراد به، فراحوا يبتدعون في الدين بدعًا ما أنزل الله بها من سلطان، ويخترعون في الإسلام ما يتمشى مع أهوائهم، ويتناسب مع مصالحهم، باسم أن النبي ﷺ صرح لهم بهذا ساعة أن قال هذا الحديث **«من سن في الإسلام...»** فترتب على هذا الفهم الخاطئ من البلاء والفساد ما لا يعلم مداه إلا الله - عز وجل -.

إذ وقع الناس في البدع المحرمة والمكروهة، بل والشركية أيضًا، وأدخلوا في الدين ما ليس منه باسم أن ما فعلوه لا يعدو إلا أن يكون سنة حسنة لهم أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

ولهذا رأيت أناسًا شيدوا القبور للأولياء والصالحين بما يسمى بالضريح أو التابوت أو المقصورة، ثم بنوا عليها المساجد، وهذا بخلاف ما يفعل عند هذه القبور، وأقله أناس يتمسحون بالأبواب، ويتبركون بالأخشاب، ويخرون

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (الزكاة/ ١٠١٧/ عبد الباقي).

سجداً على الأعتاب، كما أنهم يدعونهم من دون الله، وينذرون لهم، ويطوفون بقبورهم، فيما يوقعهم في الشرك بالله تعالى، ويقع كل هذا باسم «السنة الحسنة».

كما زاد أناس في العبادات ما ليس منها، وأضافوا عليها ما هو شبيه بها، لكنه لم يَرِد في قرآن ولا سنة، كمن زاد على الأذان، في أوله أو آخره، وراح يلحن فيه، ويجهر بالصلاة على النبي ﷺ قبله أو بعده! ومن ابتدع بدعًا في الصلوات، وأخرى في الأذكار، كالجهر بها والإضافة عليها بما يسمى بالأوراد والأحزاب، وأدائها بطريقة ما أنزل الله بها من سلطان، باسم السنة الحسنة.

والذين ابتدعوا في العادات - من بعد العبادات - فزخرفوا المساجد، وزينوا المصاحف، وأقاموا الموالد - وما أدراك ما الموالد؟ وما يحدث في الموالد؟ إن كان ذلك فيما يرتبط بمولد النبي ﷺ أوبموالد الأولياء والصالحين!! وما يحدث في مولد الحسين، وخاصة عند الشيعة!! وهأنذا أكتب بحثي هذا - وأنا في بنجلاديش فيتوافق مع يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، أي مولد النبي ﷺ وهأنذا أرى المسيرات الحاشدة التي لا تكاد تنقطع، وأسمع المدائح والتواشيح والأغاني أيضًا، ابتهاجًا بمولد النبي ﷺ.

فهل الاحتفال بالمولد يكون بمثل هذه المسيرات، والمدائح والأغاني، والطبل والزمر؟!! ولكن - كما زعموا - أنها سنة حسنة!!

وهناك بدع المواسم والمناسبات، وبدع الأفراح، وبدع الجنائز والأموات فإذا تساءلت: من أين كل هذا أيها الناس؟ قالوا: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها..**».

وهكذا رأينا الحديث صار حجة لكل من أراد أن يخترع في الدين، أو يبتدع، أو أن يزيد في الإسلام ما ليس منه، حتى دخلت البدع والخرافات في

الدين من أوسع الأبواب، ولكثرتها ظنها الناس سننًا، فماتت السنن، وحييت البدع، وإذا وجد في العلماء من يحارب البدع ويحيي السنن، قال الناس. ما هذه البدع الجديدة، لسنة أراد الله إحياءها، وإذا تركت بدعة قالوا: ماتت في الناس سنة، فانقلبت الأمور رأسًا على عقب، فإذا ماتت بدعة قالوا: ماتت سنة، وإذا عادت سنة، قالوا: ظهرت بدعة!! وإنا لله وإنا إليه راجعون؛ والبدع والخرافات أمر خطير شوّه معالم الإسلام، وأحدث في الناس فرقة وفتنًا كثيرة، وتشيعت الأمة وصارت شيعًا وأحزابًا، فالذين يحاربون البدع يسمون «سنية»، والذين يقبلونها ويحيونها يسمون «صوفية» وآخرون جاءوا بدين جديد، يسمون «الشيعة» هذا فضلاً عن الخوارج والمعتزلة، والقرامطة والزنادقة باختلاف صورهم وأشكالهم وكل فرقة من هذه الفرق، وأهل البدع، يحتجون على بدعهم بكلام حق أريد به باطل.

وكم من حق أريد به باطل - ومن هذا القبيل احتجاج أهل البدع بمثل هذا الحديث **«من سن في الإسلام سنة حسنة...»** الحديث.

وكيف يصح هذا؟ وكيف يكون؟

أناس يبتدعون في الدين بدعًا يرونها حسنة، ثم يستشهدون عليها بحديث يتكلم عن السنة الحسنة، فما دخل السنة الحسنة بالبدعة الحسنة؟

شتان شتان بين سنة حسنة، وبدعة يظنها الناس حسنة، لو تعقل الناس فهذا - كما يقال:

شتان بين مُشرِّق ومُغرِّب مُشَرِّق هذا وذاك مُغَرِّب

فمع سؤال الناس عما أحدثوه في الدين: ما هذا؟ فيكون الجواب: بدعة حسنة!!

وهل الحديث قال: «من ابتدع في الدين بدعة حسنة فيكون له أجرها وأجر من عمل بها»؟!! فيكون الاستشهاد في محله، والاستدلال في موضعه!!

أم أن الفارق بينهما كالفارق بين السماء والأرض، والبعد كبعد المشرق عن المغرب، والدرجة بينهما - حسيًّا ومعنويًا - كما بين الثرىٰ والثريا، وبين التراب والسحاب.

بدعة حسنة يستشهد لها بحديث السنة الحسنة، فكيف ذلك؟ وما الدليل علىٰ ذلك؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

ثم كيف جعلت البدعة حسنة؟ وهل في الدين بدعة حسنة؟ كلا وكيف حسنتها، ومن أين حسنتها؟ أبعقل أم بشرع؟

فإن كان بشرع فأت بالدليل، وإن كان بعقل، فالتحسين والتقبيح العقليين باطل باطل، فالحسن ما حسَّنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع.

فيا من استشهدت بالحديث في غير موضعه، وفسرته علىٰ غير المعنىٰ المراد منه، هلا عرفت معناه؟ أو فهمت سبب وروده، لتدرك المعنىٰ جليًّا بدون غموض.

روىٰ الإمام مسلم - بتمامه - عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: وفد قوم من بني مضر - اسم قبيلة - إلىٰ رسول الله ﷺ مجتابي جلود النمار.

فلما رآهم رسول الله ﷺ تمعر وجهه لحالهم - أي تغير حزنًا عليهم - ثم أمر بلالاً أن ينادي في الناس، فلما اجتمع الناس قام فيهم النبي ﷺ خطيبًا، فقال بعد أن حمد الله عز وجل وأثنىٰ عليه: «**أما بعد، أيها الناس: تصدق رجل**

بدرهمه، تصدق رجل بديناره، تصدق رجل بصاع من تمر، تصدق رجل بصاع من شعير، تصدق رجل بثوبه».

فقام رجل من الصحابة فأسرع إلى بيته، فجاء بصُرّة فيها تمر، كادت أن تنوء بها يداه أو ناءت، فوضعها بين يدي النبي ﷺ، فانطلق الناس تبعًا له يأتون بما عندهم من طعام وثياب، حتى صار أكوامًا، فتهلل وجه النبي ﷺ - فرحًا، حتى صار كالمذهبة - بياض مشرب بحمرة - ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها**..» فكان بمثابة المكافأة لمن بادر وبكرَّ من الصحابة في فعل الخير، والإتيان بالصدقة.

وامتثال قول النبي ﷺ «**تصدق رجل بكذا وبكذا**» الذي معناه: ليتصدق في الحال، فهو خبر يحمل معنى الأمر، أو ليتحول الأمر خبرًا في التو واللحظة، وقد كان من أمر هذا الصحابي ما كان حيث بادر وسبق إخوانه، فنال تلك الجائزة من رسول الله ﷺ هو وأمثاله إلى يوم القيامة.

فهل رأيت في الحديث ما يدل على ما ذهبوا إليه من البدعة الحسنة أو غير الحسنة؟ وهل كانت الصدقة من جنس البدع حتى يستشهد بالحديث على البدع؟!!

إنما هو رجل أسرع إذ تباطأ الناس، وبادر إذ تأخر غيره، ثم أخذتهم الغيرة من صنيعه، ففعلوا مثلما فعل، فلما كان لهم بمثابة الإمام والمذكر بفعله كان قد سن لهم سنة حسنة، هي من جنس الدين، لا من غيره، وعين ما أمر به النبي ﷺ وليس خلافه أم يقول قائل: إتيانه بالصدقة بدعة حسنة؟!

ويقاس على ذلك كل من أحيا سنة، أو أمات بدعة، أو علم علمًا، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو ذكر غافلاً، أو منع ظلمًا، أو هدى حائرًا أو

أرشد ضالاً أو كان للناس في الخير قدوة وصار لهم إمامًا أو دعا إلىٰ هدىٰ، أو رد عن ردىٰ فقد أحيا في الناس سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء .

فالسنة الحسنة ليست بدعة في الدين، وليست أمرًا محدثًا في الإسلام، وليست إضافة علىٰ السنة، أو اختراعًا في العبادة، ولا فيما يَمُتُّ للدين بِصِلة، فيما يخالف أمور الدنيا، فهذه، كما جاء في الحديث «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»[١] .

إن قوله ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة...**» الحديث .

كقوله ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من عمل به، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل وزر من عمل به**»[٢] .

أما أن يزيد في الإسلام باسم السنة الحسنة ! ! فكيف ذلك؟

وقد كمل الدين، وتمت النعمة، وأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣] .

فالدين قد اكتمل، فمن الذي يرىٰ في الدين نقصانًا يريد أن يكمله، أو قصوراً يريد أن يتمه، أو خللاً يريد أن يصلحه، أو منفعة لم يذكرها النبي ﷺ يريد أن يحصلها، أو فائدة يريد أن يتداركها، الله أكبر، وهل في الدين نقصان؟

ورحم الله الإمام «مالكًا» حين قال: «من زاد في الدين أو نقص فقد اتهم محمداً ﷺ بأنه قد خان الرسالة» حاشا لله، ونربأ برسول الله ﷺ عن ذلك

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (الفضائل/ ٢٣٦٣/ عبد الباقي) .

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في (العلم/ ٢٦٧٤/ عبد الباقي) .

كيف وقد قال : «**ما رأيت أمرًا يقربكم من الله ويقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار، إلا وقد أمرتكم به، وما وجدت أمرًا يباعدكم عن الله ويباعدكم عن الجنة، ويقربكم من النار، إلا وقد نهيتكم عنه، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، و إذا نهيتكم عن نهي فاجتنبوه**».

فنشهد أنك يا رسول الله بلغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، ومحى الله بك الظلمة، وكشف بك الغمة، وهدى بك من الضلالة، ورد بك من الجهالة، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

فصلوا عليه وسلموا تسليمًا، واحذروا أن تكذبوه من غير أن تدروا، وأن ترفعوا صوتكم عليه من غير ما تعلموا، أو تقدموا بين يديه وأنتم تتألوا، فتحبط أعمالكم، وتضيع أجوركم، من حيث تشعرون، أو وأنتم لا تشعرون.

فهل يمكن أن يقول رسول الله ﷺ حديثًا يكون مندوحة للناس أن يخترعوا في الدين ما يشاءون، ويزيدون كما يريدون باسم السنة الحسنة؟!!

ثم نحن نتساءل: ما السنة؟ وما البدعة؟ حتى ندرك الفارق بينهما، فلا نخلط في دين الله.

السنة لغة: هي الطريقة، ومنها السَنَن: أي المنهج.

وهي بالمعنى اللغوي تأتي بمعنى السنة الحسنة، وتكون بمعنى السنة السيئة، أي هذا فلان نهج نهجًا حسنًا، وطرق طريقة حسنة، وكذا يقال نهج نهجًا سيئًا، فمن دعا الناس إلى إحياء السنة فيهم فقد سن سنة حسنة، ومن اخترع لهم ضلالة فقد اخترع طريقة سيئة، أو سن سنة سيئة، ومن أمر بمعروف ونهى عن منكر فقد سن سنة حسنة، ومن دعا إلى شر ورغّب فيه، ونهى عن خير وحذّر منه فقد سن سنة سيئة، فيكون عليه وزرها ووزر من عمل بها، فليس من عمل كمن دعا، فالذي عمل، قانونه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

والذي دعا، قانونه: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

والسنة شرعًا: هي ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خلقية أو خُلقية، كما هو تعريف المحدثين.

وإن أردت الاختصار فهي قول النبي ﷺ وفعله وتقريره - كما قاله الأصوليون.

والسنة - بمعناها الشرعي - صاحبها هو رسول الله ﷺ وليس أحد معه ولا بعده.

وكلامنا هنا عن السنة بالمعنى الشرعي، وليس اللغوي.

أما البدعة فهي لغة: الأمر المحدث، أو المستحدث على غير مثال سابق، كما قال تعالى: ﴿**بديع السموات والأرض**﴾ أي الذي خلقهما وأحدثهما على غير مثال سابق.

فكل أمر مستحدث ومخترع، فهو لغة مبتدع، فيقال: جهاز مبتدع، ومنبر مبتدع أو مستحدث، والذي يخترع الأسلحة، وطرق المواصلات وغيرها فهو مبتدع، ولكن في أمور الدنيا، وما كان كذلك ينظر في حكمه من حيث المنافع والمضار، وما يفيد البشرية وما لا يفيد، ليعلم حكمها في الإسلام وليس هذا هو مجال الكلام هنا.

وأما البدعة شرعًا: فهي طريقة مخترعة في الدين، تضاهي الطريقة الشرعية، يقصد بها زيادة التعبد لله عز وجل.

وقولنا: «**طريقة مخترعة**» أي: لا دليل عليها من القرآن أو السنة، وليس عليها الإجماع، ولا صح بها الاجتهاد، «في الدين» يخرج عنها أمور الدنيا،

فهي ليست من جنس البدعة المذمومة على كل حال.

«تضاهي الطريقة الشرعية» أي له و جه شبه جاء في السنة مع اختلاف الطريقة والأداء، كمن يجهر بالذكر، والأصل فيه السرية، أو من يصلي على النبي محمد ﷺ بعد الأذان جهراً وبصيغة مخترعة، والأصل أن الصلاة على النبي بعد الأذان سنة مؤكدة أو واجبة، ولكن بالصيغة الإبراهيمية، مع الدعاء بالوسيلة، كما بينه ﷺ.

أو الأذان بدلاً من أن يكون للإعلان، يقال بالتطريب والألحان، ويسمى أذان السلطان.

وقولنا: «يقصد بها زيادة التعبد لله عز وجل أو المبالغة في العبادة» معناه أن المبتدع لا يريد هدم الدين، ولكن يتكلم بمنطق زيادة الخير خيرين، وهذا لا يصح في دين الله، فالزيادة فيه كالنقصان، كلاهما مذموم ومرفوض، وهل يصح مثلا أن يجعل الرجل الصلاة الثنائية رباعية، أو الرباعية سداسية، من باب زيادة الخير، ولا أخير من الصلاة وكثرة السجود؟!!

والمبالغة في الدين مرفوضة؛ لأنها من باب الغلو والتنطع، وكلاهما تهلكة، كما قال ﷺ: «**هلك المتنطعون**»(١) - ثلاثًا أي المتشددون، وكذا قال: «**إياكم والغلو، فإنما أهلك الغلو من كان قبلكم**»(٢) ولما سمع ﷺ خبر النفر الثلاثة الذين سألوا عن عبادته، فكأنهم تقالوها - أي عدوها قليلة - ثم قال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الثاني: وأما أنا فأقوم الليل ولا أنام أبدًا، وقال الثالث: وأما أنا فلا أتزوج النساء أبدًا، فجمع النبي ﷺ الناس - لخطورة الأمر - وخطب فيهم قائلاً: «**أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم لله،**

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (العلم/ ٢٦٧٠/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه النسائي في (مناسك الحج/ ٣٠٥٧/ أبو غدة) ابن ماجه في (المناسك/ ٣٠٢٩)، وهو في «صحيح الجامع» (٢٦٨٠).

ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[١] إنها مبالغة في غير موضعها فهي مرفوضة ومردودة.

كيف وقد قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[٢] أي مردود، وباطل.

وكما قال ﷺ: «.. **فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»[٣].

فهل بعد هذه الأحاديث يقول قائل: أنا أبتدع بدعة حسنة، وهذه سنة حسنة، هذا، ولئن كان في الدين سنة حسنة بمعنى طريقة أي بمعناها اللغوي، على نحو ما أسلفنا وضدها السنة السيئة، كما ذكرنا لها الأمثلة.

فإن المحققين من العلماء قالوا: ليس في الدين بدعة حسنة، وكيف تكون بدعة، أي في الشرع وتكون حسنة؟ وكيف حسنها؟ وقد سبق بطلان الحسن والقبح العقليين.

وقد علم أن العقول متفاوتة، فهل يبقى الدين حسب اختلاف العقول، وحسب الأهواء والأمزجة، ويكون هذا دين زيد، وذاك دين عمرو؟! فلا يكون بهذه الطريقة دينًا.

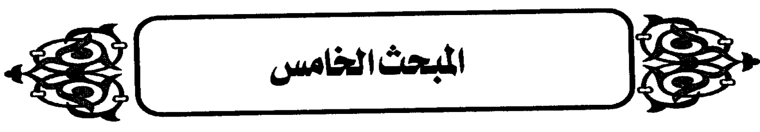
ومع ذلك تبقى هناك شبهات لدى المسلمين - خاصة المتصوفة منهم - تجوز لهم البدعة على نحو ما سنرى في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (النكاح/ ٥٠٦٣/ فتح)، مسلم في (النكاح/ ١٤٠١/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الصلح/ ٢٦٩٧/ فتح)، مسلم في (الأقضية/ ١٧١٨/ عبد الباقي).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود في (السنة / ٤٦٠٧)، الترمذي في (العلم/ ٢٦٧٦)، ابن ماجه في (المقدمة/ ٤٢ : ٤٤). وصححه الشيخ الألباني في «المشكاة» (١٦٥).



المبحث الخامس

حديث: «ما رآه المسلمون حسنًا»

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن**»[1] .

والشبهة التي يريدها المبتدعة من وراء هذا الحديث، هو إعطاء تصريح مفتوح لارتكاب البدع، ما دام يراها المسلمون حسنة، وتكون عند الله حسنة.

وهذا فهم خاطئ، وأمر مقلوب، ولا يكون بهذا التفسير أبدًا، أو بهذا المعنى مطلقًا، وبادئ ذي بدء، نقول: إن هذا الحديث موقوف على «عبد الله ابن مسعود» رضي الله عنه، وليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ ومع كونه موقوفًا، فهو صحيح، وينبغي أن نفهمه فهمًا صحيحًا، فهل يراد بهذا الأثر أن كل ما يراه المسلمون صحيحًا أو حسنًا يكون دينًا؟

والإجابة، بالطبع . . لا، وإلا فالمسلمون الآن يرون الأخذ بالحضارة الغربية، وهم سائرون في هذا الطريق، لو سألنا الشباب في الجامعة عن الاختلاط لرأوه حسنًا، ولو سألنا الفتيات عن التبرج لرأينه حسنًا وتطورًا، ولو سألنا الأسر المسلمة عن التلفاز - الذي ندر ما يخلو منه بيت - لقالوا بوجوبه وفرضيته!!، وأما الفيديو فلعله لا يزال في طور السنة والنافلة.

وإن كان أصبح واجبًا عند الآخرين، و «الانترنت» في رواية ثانية!! و «الدش» في رواية ثالثة إلى آخر تلك الأمثلة التي أصبحت عرفًا وتقليدًا، بل دينًا في حياة المسلمين، وهي ليست من الدين في شيء، بل تجر عليهم البلاء والوباء والوبال.

---

(١) انظره في «الضعيفة» (٥٣٣).

فهل يقال على هذا النحو: ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن؟!!

هذا وإذا لم تتفق كلمتهم، ويجتمع رأيهم، فسيقع الخلاف، فما يحسنه زيد يقبحه عمرو، وما يقبحه حسن، يحسنه حسين، فهل يكون هذا دينًا؟!!

فالأمر ليس كذلك، والحديث لم يرد بهذا المعنى، وإنما هو لا يخرج عن أحد معنيين:

أحدهما: ما رآه المسلمون بما تعنيه الكلمة أي المسلمون حقًا، وليس كذبًا، المسلمون صدقًا، لا زورًا، المسلمون واقعًا، لا اسمًا أو رسمًا، مسلمون كأصحاب النبي محمد ﷺ إذا رأوا أمرًا حسنًا فإنه يكون حسنًا، لأنهم شهداء الله في الأرض، حتى لو أثنوا على واحد بخير لوجبت له الجنة، ولو ذكروا الآخر بِشرٍّ لوجبت له النار، كما في الحديث «مرت جنازة رجل فأثنى عليها الصحابة خيرًا، فقال ﷺ: «وجبت» ومرت جنازة أخرى فأثنوا عليها شرًا، فقال ﷺ: «وجبت» قالوا: ما وجبت يا رسول الله؟ قال: **هذا أثنيتم عليه خيرًا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**»[1].

والمعنى الثاني: ما رآه أئمة المسلمين من أهل الحل والعقد، من الأئمة المجتهدين، فيما جد لهم من قضايا، وما حدث من أمور لم يجدوا فيها دليلاً صريحًا في القرآن، ولا صحيحًا في السنة، فأخذوا يقيسون أو يجتهدون، فما رأوه في هذه المسألة - بعد تحريهم واجتهادهم - حسنًا يكون عند الله حسن، وما رأوه قبيحًا فهو قبيح، لأنهم مجتهدون، وهم مأجورون على كل حال، إذا أصابوا فلهم أجران، وإذا أخطأوا فلهم أجر واحد، فهم إذا اجتمعوا على أمر لا يكون قبيحًا وضلالاً، بل يكون حسنًا وحلالاً. فينبغي فهم الحديث مع ضوابطه الشرعية، وأصوله الفقهية، فهذا دين ويجب أن نعرف عمن نأخذ ديننا.

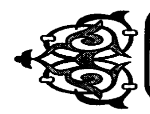
(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الجنائز/ ١٣٦٧/ فتح) مسلم في (الجنائز / ٩٤٩/ عبد الباقي).

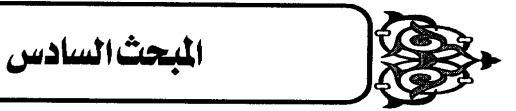
وأن نحذر البدع التي يظنها الناس دينًا، وهي ليست بدين، وإنما من تزيين الشيطان، الذي قال: كلما أهلكتُ الناس بالذنوب أهلكوني بالتوبة، فاخترع لهم ذنوبًا لا يتوبون منها، ألا وهي البدع، فيعملونها، فلا يتوبون، ظنًّا منهم أنهم يحسنون صنعًا.

ومن هنا كان شر البدعة أخطر وأكبر من المعصية، لأن العاصي يوشك أن يتوب، فيتوب الله عز وجل عليه، أما المبتدع فمما يتوب؟!

ولذلك لا يقبل الله صاحب بدعة حتى يدع بدعته، وكيف يدعها أو يتوب منها وهو يرى أنه بفعله لها من العارفين بالله الذين لم يكفهم ما جاء في القرآن والسنة حتى زاد عليه؟!

* * *





المبحث السادس

حديث : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين»

روى الترمذي وغيره عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، قلنا : يا رسول الله، كأنها موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ قال : «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»[1].

هذا الحديث فيه الأمر بالتمسك بسنة النبي ﷺ، وفيه النهي عن البدع، وتجنب محدثات الأمور، ومع عظمة الحديث ووضوحه، إلا أن القوم فهموه فهمًا مقلوبًا، واتخذوا منه شبهات، ففي الحديث : «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين...**» وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

وقد أثنى النبي ﷺ عليهم، بقوله : «**تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ**» فهي إما تفيد الخبر بأن الخلفاء تمسكوا بالسنة وعضوا عليها بنواجذهم، ولم يخرجوا عنها قيد أنملة.

وإما أن هذه الجملة تعني الأمر لنا - نحن المسلمين - أي تمسكوا بسنتي، وعضوا عليها بنواجذكم، و جاء النهي بعدها «**وإياكم ومحدثات الأمور، فإن**

(١) صحيح: تقدم قريبًا جدًا.

كل محدثة بدعة...» .

والشبهة التي أثارها القوم: كيف تحرم البدعة، خاصة إذا كانت بدعة حسنة، وقد ابتدع الخلفاء الراشدون بدعًا في الدين حسنة، كجمع «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه ـ للقرآن، وجمع «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه الناس للتراويح، مع الزيادة عليها، وزيادة «عثمان بن عفان» رضي الله عنه الأذان الثاني يوم الجمعة، وهذا مع الأمر باتباع سنتهم كسنة النبي ﷺ **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»؟!**

يقولون: فإذا ابتدع الخلفاء، فلماذا تحرمون علينا البدعة؟

وقد ظنوا بشبهتهم هذه أن الإسلام يقبل البدعة الحسنة في الدين.

وقد أخطأوا في هذا الفهم، وضلوا في هذا المسلك، وعلينا أن نبين لهم الفهم الصحيح، عسانا أن نسلك الصراط المستقيم، وأن نلتزم بالمنهج القويم.

فقولهم: ابتدع الخلفاء!! وأنى لهم؟ وحاشاهم أن يبتدعوا، وكيف يبتدعون وقد زكاهم الرسول ﷺ إذ ربط منهجهم بمنهجه؛ وسنتهم بسنته، بهذا الحديث **«فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»** .

(١) فكيف يقال: ابتدع أبو بكر فجمع القرآن؟! وهل هذه بدعة، ولو بالمعنى اللغوي؟! كلا، وذلك لأسباب، منها:

أولاً: الذي جمع القرآن وكتبه هو النبي محمد ﷺ في حياته، وأثناء نزول القرآن الكريم، وقد علم القاصي والداني أن النبي ﷺ كان له «كتبة الوحي» يكتبون القرآن عند نزوله بما تيسر كتابته فيه من الجلود والجريد والورق والعظم وخلافه.

ولقد كتب القرآن كله في حياة النبي ﷺ، وعرف على نحو ما هو عليه الآن

في المصاحف بهذا الترتيب، وليس حسب النزول، حيث كان «جبريل» عليه السلام ينزل بالآية أو أكثر أو بالسورة، فيقول: يا محمد ضع هذه الآية أو الآيات بين آية كذا وآية كذا، وضَعْ هذه السورة بين سورة كذا وكذا، على ما عليه ترتيب القرآن اليوم، وليس على نحو ما نزل منجمًا حسب الوقائع والأحداث، وقد كان «جبريل عليه السلام» يقرئ النبي ﷺ القرآن في كل عام مرة، فلما كان العام الذي توفي فيه رسول الله ﷺ أقرأه مرتين.

كما أن الله تبارك وتعالى قد تعهد بجمع القرآن وحفظه، مع بيانه كذلك، وطمأن النبي ﷺ الذي كان يتعجل في تلاوته مع جبريل قبل أن ينتهي من «الناموس» الذي نزل به، خشية أن يتفلت منه ﷺ فقال الله له ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ [القيامة: ١٦-١٩] كذا قال له: ﴿**وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٤].

لذلك نقول: القرآن كتب كله في حياة النبي ﷺ، وجمع كله كذلك، ولكن حيث كان يكتب القدر الذي ينزل من القرآن على ما هو متيسر آنذاك للكتابة من الحجارة، أو عسيب النخيل، أو الجلود، فقد كانت هذه المكتوبات موزعة عند فلان، وهذه في بيت فلان، وأخرى عند علان، من الصحابة يقرءونها ويحفظونها ويتناقلونها فيما بينهم، فهي موزعة في البيوت ولدى أشخاص كثيرين.

هذا.. وقد تم نزول القرآن وانقطع الوحي بموت رسول الله ﷺ.

فراحت يد المنافقين تعمل على فرقة المسلمين، ووقعت الردة، وكانت حروب المرتدين، وكذا حروب مانعي الزكاة، والمتنبئين، وحيث قتل في تلك الحروب عدد كبير من المسلمين، ومنهم جم غفير من حفظة القرآن الكريم.

لذلك لما رأى «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه هذا الأمر وهو الملهم

والمحَدَث والفاروق أشار على خليفة رسول الله ﷺ بجمع القرآن، خشية أن يتفلت من المسلمين لكثرة القتل الذي أصاب حفظة القرآن الكريم، فاستثقل «الصديق» هذه المهمة، لكثرة المهمات في حياته، ولما لهذا الأمر من خطورة وهيبة، ولم يزل «عمر» رضي الله عنه بأبي بكر رضي الله عنه يحدثه في هذا، حتى شرح الله صدره لذلك، وأرسل إلى أحد كتبة الوحي لرسول الله ﷺ «زيد بن ثابت» رضي الله عنه الذي أمره بأن يجمع ما كتب من القرآن، وصار مفرقًا في الناس، فاستثقل المهمة أيضًا، ولكن سرعان ما شرح الله صدره، وبدأ يجمع القرآن الذي كتب على الحجارة والجريد والجلود والعسيب وغير ذلك من البيوت والأمصار حتى جمع القرآن، وكتب ما تيسر له كتابته على شيء من الجلد أو الورق مع مراجعة ذلك على ما هو محفوظ في صدور الرجال.

ثم جمع في قالب واحد بعد أن كان مفرقًا ووضع في موضع واحد، حيث رتبت آياته وسوره على النحو الذي ختمه رسول الله ﷺ وأقرأه إياه جبريل، في العام الذي توفي فيه ﷺ. وبهذا جمع «أبو بكر» رضي الله عنه القرآن.

فما الذي فعله أبو بكر ليكون مبتدعًا؟ أو ما الذي ابتدعه وما الذي اخترعه؟

جمعه الآيات والسور المتفرقات في البيوتات، بحيث تصبح في بيت واحد، أبهذا يكون مبتدعًا؟ ويقال: ابتدع أبو بكر، وحاشاه.

ثانيًـــا: كيف يكون أبو بكر رضي الله عنه بهذا العمل مبتدعًا، وقد أذن رسول الله ﷺ بكتابة القرآن؟ وما الجمع إلا كتابة، كتابة ما تناثر، وجمع ما تطاير.

إذن مأذون له أن يجمع القرآن، والنص عنده، والدليل معه في أن يجمع القرآن، ما دام صرح الرسول ﷺ بكتابة القرآن، فقد أمر النبي ﷺ بكتابة

القرآن، وكان ينهىٰ عن كتابة شيء غيره، فكانت لا تكتب السنة خشية أن تختلط بالقرآن، إلىٰ أن أذن ﷺ بكتابتها، وجاءه «عبد الله بن عمرو بن العاص» رضي الله عنهما وقال: يا رسول الله، إنك تغضب، أفأكتب عنك في الرضا والغضب؟ فأشار ﷺ إلىٰ فيه، وقال: **«اكتب، فوالذي نفسي بيده لا يخرج منه إلا حقًا»**(١) ولو لم يصرح النبي ﷺ بكتابة السنة، لكانت كتابتها بدعة.

ولكن هنا إذن وتصريح بكتابة القرآن، وكذا بكتابة السنة، فكيف يكون جمع القرآن بدعة؟!

ثالثًا: نقول: ولو لم يجمع القرآن، أو لم يكتب علىٰ عهد النبي ﷺ، ولم يأمر بذلك أو يأذن به، ثم كتبه وجمعه «أبو بكر» رضي الله عنه بإجماع المسلمين، لكان هذا دليلاً تشريعيًا، والإجماع هو المصدر الثالث المعتبر من مصادر التشريع المتفق عليها.

وقد قال الله في ذلك ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ١١٥] قال المفسرون والأصوليون: سبيل المؤمنين: هو إجماع أئمة المسلمين.

وقد كان جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه علىٰ مرأىٰ ومسمع من الصحابة رضي الله عنهم، فكان ذلك إجماعًا من غير مخالف، ولا نكير.

رابعًا: لو لم يكن جمع القرآن بدليل، ولم يكن بالإجماع، لكان ذلك مباحًا ومطلوبًا، من باب المصالح المرسلة، التي لم يرد فيها دليل ينهىٰ عنها.

ولم يرد دليل ينهىٰ عن جمع القرآن، واقتضت المصلحة ذلك، خشية ضياع القرآن بموت الحفظة، ولذلك فإن المصلحة المرسلة دليل يتيح لأبي بكر رضي الله عنه ولغيره، أن يجمع القرآن، فكيف يقال بعد كل هذا إنه قد ابتدع، هذه واحدة. فيما ذكروه عن بدعة جمع القرآن، ولا بدعة.

---

(١) أخرجه أحمد (٦٨٩١).

(٢) زعموا أن «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه ابتدع، فجمع الناس على صلاة التراويح خلف إمام واحد وكذلك أنه زاد فيها من ثماني ركعات إلى عشرين، حدث هذا في عهد عمر رضي الله عنه!!

ونبادر بالرد على هذا الزعم، فنقول: من سوء الأدب مع أصحاب النبي ﷺ أن يقال عنهم أو عن أحدهم بأنه ابتدع، وقد زكاهم الله تعالى، ورسوله ﷺ.

سيما إذا كان الكلام عن فاروق الأمة «عمر بن الخطاب» الذي قال عنه النبي ﷺ: «**إن يكن في أمتي مُحَدَّثون، فعمر منهم**»[1] كما قال له ﷺ: «**لقد جعل الله الحق على قلبك ولسانك يا عمر**»[2] إلى آخر ما قاله فيه النبي ﷺ. فضلاً عن نزول القرآن موافقًا لرأي عمر بن الخطاب في نحو أربعة عشر أمرًا، ومع هذا يزعم الجهال ويقول الضُلاَّل بأن عمر بن الخطاب قد ابتدع في الدين يوم أن جمع الناس على صلاة التراويح، وحاشاه رضي الله عنه أن يبتدع، فعمر جمع الناس على صلاة التراويح نعم، أما إنه ابتدع فلا.

وما الضير في أن يجمع «عمر» الناس على التراويح؟ أو ليست سنة عن النبي ﷺ؟! أليست من قيام الليل الذي أمر الله به في قرآنه، وأمر به النبي ﷺ في سنته؟! .

ألم يقل النبي ﷺ عن صلاة التراويح خاصة: «**إن الله عز وجل فرض عليكم صيام رمضان، وسننت لكم قيامه، فمن صامه وقامه إيمانًا واحتسابًا غفر**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء/ ٣٤٦٩/ فتح) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأيضًا مسلم في (فضائل الصحابة/ ٢٣٩٨/ عبد الباقي) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) صحيح بشواهده: كما في «الصحيح المسند من فضائل الصحابة».

له ما تقدم من ذنبه»[1] أم لأنه جمعهم عليها؟ أو ليس يصح القيام جماعة؟!

بل ألم يصلِّ النبي ﷺ صلاة التراويح جماعة في المسجد، وصلى بصلاته أناس ليلة، ثم كثروا في الليلة المقبلة، وصلى بهم، فلما كانت الليلة الثالثة، وامتلأ المسجد، لم يخرج إليهم رسول الله ﷺ إلا عند صلاة الفجر، فلما رأى تعجبهم من عدم خروجه إليهم، قال لهم: **«ما منعني من أن أخرج إليكم إلا أنني خشيت أن تفرض عليكم»**[2].

إذن فرسول الله ﷺ صلى صلاة التراويح جماعة في المسجد، ثم تركها لعلة وهي خشية الفرضية، ولو فرضت علينا ما استطعناها.

لذلك فعمر رضي الله عنه لم يبتدع، بل نفذ سنة فعلها النبي ﷺ ثم تركها للعلة المذكورة، وبانقطاع الوحي والتشريع، زالت العلة، وهي خشية الفرضية، فيمكن العودة إلى السنة؛ لأنها هي الأصل وتركها في جماعة هو العارض عليها لعلة، وقد انتهت باكتمال الدين، فهل هذا الفعل يكون بدعة مع ذكر هذه الأدلة وتلك الدلائل؟!

ولقائل أن يقول: فلماذا لم تعد هذه السنة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه بدلاً من خلافة عمر رضي الله عنه؟

والإجابة على ذلك تكون كالآتي:

أولاً: إما لانشغال أبي بكر رضي الله عنه بما هو أهم منها، وهو جهاد

---

(١) **ضعيف**: أخرجه النسائي في (الصيام/ ٢٢١٠/ أبو غدة)، و ابن ماجة في (إقامة الصلاة/ ١٣٢٨). وهو في «ضعيف الجامع» (١٥٦٢ - ٣٤١٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (التهجد/ ٩٢٤/ فتح)، ومسلم في (صلاة المسافرين/ ٧٦١/ عبد الباقي).

المرتدين، ومقاتلة المتنبئين، ومحاربة مانعي الزكاة الناكثين، وإنفاذ بعث أسامة ابن زيد الذي أعده النبي ﷺ قبل موته، ولا شك أن كل هذا أهم من النظر في أمر صلاة التراويح.

وإما أن «أبا بكر» رضي الله عنه رأىٰ أن قيام الناس في بيوتهم، سيما في الثلث الأخير من الليل، أفضل من صلاتهم القيام جماعة في المسجد في أول الليل، فهذا أمر وارد ومحتمل.

فلهذا أو لغيره انشغل أبو بكر رضي الله عنه عن أمر صلاة التراويح، وكانت خلافته رضي الله عنه قليلة لم تدم أكثر من سنتين، فرضي الله عنه وأرضاه.

ولكن لما ولي «عمر» رضي الله عنه الخلافة، واستقر الأمر، وتمت الفتوحات في خلافته التي زادت علىٰ عشر سنوات، لما دخل المسجد ليلة رأىٰ أمرًا لم يعجبه، حيث رأىٰ أناسًا يصلون لحالهم، كل واحد بمفرده، ورأىٰ أناسًا اتخذوا إمامًا يصلون خلفه، فلم يعجبه هذا الحال.

وقال: ما دام الأمر كذلك، فماذا لو جمعت الناس علىٰ إمام واحد؟

وهذا من فقه عمر رضي الله عنه، حيث الناس لم يصلوا في بيوتهم، ولم يؤخروا القيام إلىٰ الثلث الأخير من الليل، وما دام يشوش بعضهم علىٰ بعض، فعلىٰ أمير المؤمنين أن يوفر لهم إمامًا يصلون خلفه، ما دام ذلك في دائرة المتاح والمباح، فكيف لو كان في الأصل سنة ثابتة؟

فجمع الناس علىٰ «أبي بن كعب» رضي الله عنه، وهو أحد القراء الأربعة الذين أمر النبي ﷺ أن نأخذ القرآن عنهم، فضلاً عن منقبة أخرىٰ «لأبيٍّ» وهي أنَّ رسول الله ﷺ قال له: **«يا أُبي: إن الله أمرني أن تقرأ عليَّ سورة البينة»**

فقال: يا رسول الله: أسمّاني الله لك باسمي، قال: «**أجل**»[(١)].

والشاهد: أن عمر رضي الله عنه، جمعهم على إمام واحد، ورأى ذلك فأعجبه، وقال: نعمت البدعة هذه، وهذه شبهة أخرى فَهِم منها المبتدعة جواز البدعة الحسنة في الدين، لقولة عمر رضي الله عنه ولكن «عمر رضي الله عنه» هنا لم يحدث في الدين حدثًا ولا أمرًا مبتدعًا، ولا يضاد، ولا يخالف السنة، بل هو السنة ذاتها، وقولته هذه من باب البدعة في معناها اللغوي.

أو هو هضم النفس، أسلوب كان يتبعه عمر حتى لا ينسب الفضل لنفسه، ولا يرى أنه أتى بما لم يستطع غيره أن يأتي به، ونحو هذا. فهذا - في غالب الظن - من تواضع عمر رضي الله عنه فهل هناك أي بدعة؟ فعمر رضي الله عنه جمع الناس على التراويح، فلو جمعت الناس لدرس علم أيكون هذا بدعة؟ ولو اجتمعنا على خير أيكون هذا ضلالة؟

إن «عمر» أعاد سنة عن رسول الله ﷺ تركت لعلة هي خشية الفرضية، وقد زالت العلة، وعمر إذ فعل هذا أمام جمع من الصحابة دونما نكير من أحد، فيكون هذا إجماعًا.

ورضي الله عن علي إذ قال: نور الله قبر أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب»، كما نور المساجد بصلاة التراويح.

* وأما قولهم بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد في صلاة التراويح إلى عشرين ركعة، فهو أثر قد ورد، واختلف فيه أهل الحديث، هل صح أم لم يصح؟

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (المناقب/ ٣٨٠٩/ فتح)، مسلم في (صلاة المسافرين/ ٧٩٩/ عبد الباقي).

فبعض المحققين من أهل العلم لم يصححوه، وبعضهم قالوا هو صحيح.

ونحن نناقش هذا الأثر على أساس أو افتراض أنه صحيح.

فهل تكون الزيادة في النافلة سيَّما في قيام الليل بدعة، ما دام لم يرد دليل ينهى عن ذلك؟

ولم يرد دليل ينهى عن ذلك، وإن كانت سنة النبي ﷺ في ذلك، كما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «**ما كان يزيد رسول الله ﷺ في رمضان ولا غيره عن إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا فلا تسأل عن طولهن وحسنهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن طولهن وحسنهن، ثم يصلي ثلاثًا**»[1] فالمعني بالثماني ركعات هي القيام، والثلاثة الأخيرة هي الوتر كما صح عنه ﷺ أنه قال: «**قيام الليل مثنى مثنى**»[2].

وهذا يدل على جواز قيام الليل إما ركعتان ركعتان، وإما أربع أربع.

كما يدل قوله ﷺ: «**قيام الليل مثنى مثنى**» على عدم حصره في ركعات، بل يمكن أن يصلي الرجل ما شاء من الليل، مثنى مثنى، وفي الأخير يوتر بركعة أو بثلاث، قبيل الفجر.

وهو في هذه الحالة إن أطال القراءة ربما اقتصر على ثماني ركعات مثلاً، ولكن إن قصر في القراءة فيمكن أن يعوض ذلك بكثرة الركعات، وقد فعل هذا السلف الصالح - رضوان الله عليهم - من غير نكير، لما في الأمر من الجواز.

والنبي ﷺ إذ كان غالب فعله، صلاة إحدى عشرة ركعة، صلى ليلة ثلاث

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (التهجد/ ١١٤٧/ فتح)، مسلم في (صلاة المسافرين/ ٧٣٨/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الصلاة/ ٤٧٢/ فتح) مسلم في (صلاة المسافرين/ ٧٤٩/ عبد الباقي).

عشرة ركعة، فدل على جواز الزيادة، والنبي ﷺ إذ قال: «**اجعلوا آخر صلاتكم وترًا**»[1] صلى أحيانًا بعد الوتر، للتشريع، وبيان جواز الصلاة بعد الوتر، لمن أوتر أول الليل، ثم قام آخره، فلا يحرم نفسه فضل قيام الليل بحجة أنه أوتر، بل يجوز له ذلك، وإن كان خلاف الأولى.

ونحن نفهم من حديث عائشة «ما كان يزيد رسول الله . .» على أن هذا فعله ﷺ، دون نهي عن الزيادة، وإن كنا نعلم أن الكمال والجمال في الالتزام بهديه ﷺ، والأفضل هو اتباع سنته ﷺ، ولكن ليته لا ينظر إلى جانب واحد، وهو الالتزام بالعدد، دون الالتزام بالهدي في طول القيام، وترتيل القرآن، والطمأنينة في الأركان، فهذا هو الجانب الأهم في القيام، لكن أن نصلي عشرين ركعة أو أربعين، ننقرها نقر الغراب، وننبشها نبش التراب، دون ما حسن قراءة، ودون ما طمأنينة، ونستطيل قراءة الآية الواحدة بأي حجة، ثم نقول: نصلي عشرين ركعة!! لا . . يا قوم، بل صلاة ركعتين على نحو ما كان يصلي النبي ﷺ أفضل من صلاتكم هذه، وإن صليتم طوال الليل، ورحتم تعدون ستين ركعة بدلاً من عشرين.

فما سمي قيام الليل إلا لطول القيام فيه، وقد كان ﷺ يقوم من الليل حتى تتورم - تتفطر، تتشقق - قدماه»[2] ﷺ.

فالعبرة هنا بالكيفية لا بالكم أو العدد، والله الموفق.

(٣) ثم ننتقل إلى شبهتهم الثالثة فيما زعموه أن «عثمان بن عفان رضي الله عنه» قد ابتدع، فزاد الأذان الثاني يوم الجمعة.

---

(١) **صحيح**: انظر التخريج السابق.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (التهجد/ ١١٣٠/ فتح)، مسلم في (صفة القيامة/ ٢٨١٩/ عبد الباقي).

والحديث أخرجه الإمام البخاري - رحمه الله - عن أبي هريرة قال: «كان الأذان على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر إذا جلس الإمام على المنبر، فلما كان عهد عثمان وكثر الناس أمر مؤذنًا أن يؤذن على الزوراء، فكان الأذان الثاني»(١).

ومن خلال هذا الحديث ظل الأذان الثاني يوم الجمعة إلى يومنا هذا في كثير من المساجد حتى في الحرمين.

ومن الحديث جوز أهل البدع لأنفسهم أن يبتدعوا في الدين باسم البدعة الحسنة، وعملاً بسنة الخلفاء الراشدين، كما علمت، فهل الأمر كذلك؟

ننظر - أولاً - في أول الحديث: كان الأذان على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر إذا جلس الإمام على المنبر . . . » فهذه أولاً هي السنة الثابتة عن النبي ﷺ، وعن اثنين من خلفائه الراشدين، وبغض النظر عن بقية الحديث ومدى فهمه، هل فهمه الناس صوابًا أو خطأً، نقول: أليس الأولى بنا أن نكتفي بهذه السنة، ونترك سنة عثمان رضي الله عنه في أمر الأذان، لأنه بالمقاييس الحسابية على طريقة الأصوات (٣ : ١) ثلاثة إلى واحد، فالثلاثة هم الأولى، وفي الثلاثة من لا يقاس بغيره في عالم البشر أبدًا، ألا وهو النبي ﷺ.

فسنة للنبي محمد ﷺ ومعه صاحباه «الصديق والفاروق» ألا يكتفى بها، فمن لم يكفه هذا فلا كفاه الله.

إذن، فلماذا زاد عثمان رضي الله عنه الأذان الثاني، مخالفًا بذلك النبي ﷺ وصاحبيه؟

والإجابة: تجدها في الحديث **«فلما كان عهد عثمان وكثر الناس...»**.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الجمعة/ ٩١٢/ فتح) من حديث السائب بن يزيد رضي الله عنه.

أي كثرت الناس في مدينة رسول الله ﷺ مع كثرة الفتوحات، وإقبال الناس إلى المدينة ـ مهبط الوحي، ومحل أجلاء الصحابة ـ لتعلم الدين، كثر الناس كثرة جعلت مسجد رسول الله ﷺ لا يسعهم، ولذلك قام «عثمان» رضي الله عنه بتوسعة المسجد، أي من بعد توسعة «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه كما هو معلوم، فحلّ مشكلة المكان، ولكن بقيت مشكلة أخرى وهي عدم استطاعة الناس سماع الأذان بعد اتساع المدينة، وسكن الناس في أطرافها، وعند السوق، حتى إنه وقع التخلف عن الجماعة والجمعة، والناس لا يشعرون، وذلك لعدم معرفة الأوقات، فلا هُمْ يسمعون الأذان، وليس هناك مكبر للصوت، ولا يملكون الساعة التي نعرفها نحن في هذه الأيام، وليس هناك مسجد قريب أيضًا حتى يسمعوا منه الأذان، فوقعت بذلك مشكلة لابد لها من حل.

وحلها في زماننا معروف، إما بمكبر صوت، أو معرفة الناس للوقت عن طريق الساعة، أو ببناء مساجد قريبة يسمع الناس منها الأذان دون مكبر صوت.

نعم. . . كل هذا عندنا ممكن، ولكن في زمن «عثمان رضي الله عنه» ما اخترع مكبر الصوت، ولا وجدت الساعات، ولا كان من الممكن أن يبنى مسجدًا بجوار مسجد رسول الله ﷺ . . . « . . والصلاة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»[1] فما الحل إذن؟

فرأى سيدنا عثمان رضي الله عنه الحل في نقل سنة التبليغ التي كانت في الصلاة إلى الأذان، وما معنى سنة التبليغ؟ كان النبي ﷺ إذا صلى بأصحابه أسمعهم التكبير والقراءة الجهرية، فلما مرض ﷺ فكان لا يسمع الناس

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الجمعة/ ١١٩٠/ فتح) مسلم في (الحج/ ١٣٩٤/ عبد الباقي).

تكبيره، فوقف «أبو بكر» رضي الله عنه وسط الصفوف حيث يسمع التكبير من رسول الله ﷺ ويُسمع هو بقية المسجد.

فهذه سنة - التبليغ تكون سنة عند الاحتياج إليها، وبدعة عند عدم الاحتياج إليها.

فسيدنا عثمان رضي الله عنه، عندما أدرك مشكلة عدم سماع الناس للأذان وتخلفهم عن الجمعة، جعل هذا التبليغ في الأذان، بحيث يكون هناك مؤذن فوق مسجد الرسول ﷺ يُسمع وسط المدينة وحيث ينتهي صوته، يكون مؤذن آخر يُسمع أطراف المدينة وأهل السوق، ولذلك أمر - رضي الله عنه - مؤذنًا أن يؤذن على «الزوراء» ومعناها - كما هو في كتب السنة - مكان مرتفع قريب من السوق.

فزِيدَ الأذان الثاني، وفي رواية: الثالث، فعلى الرواية الأولى، أي الأذان الأول المعروف على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، «والثاني» الذي جعله عثمان رضي الله عنه على الزوراء عند السوق، وأما على رواية الثالث: فلأن الإقامة تسمى أذانًا، لحديث **«بين كل أذانين صلاة»**[1] فيكون الأذان الذي زيد هو الثالث.

ومتى وقته؟ هل قبل الأول أو معه، أو بعده؟

الأمر فيه سعة، حسب الحاجة إلى الأذان، فإن كان الناس في السوق ويحتاجون العودة إلى البيت لأداء سنن الجمعة من الاغتسال ونحوه، فلا بأس أن يكون الأذان الذي عند السوق قبل الأذان الذي يصعد معه الخطيب على المنبر، حتى يدرك الناس الجمعة والخطبة.

ومن هنا نقول: إن سنة «عثمان» رضي الله عنه في الأذان، ليست على نحو

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الأذان/ ٦٢٤/ فتح) ومسلم في (صلاة المسافرين/ ٨٣٨/ عبد الباقي).

ما يفعله الناس اليوم، أذان أول، والخطيب جالس في المسجد، ثم سنة قبلية للجمعة مزعومة، ثم يصعد الخطيب أو الإمام ليؤذن الأذان الثاني بين يديه، كأنما هو للإمام وحده.

لا.. ما فعل هذا عثمان، ولا خالف سنة النبي ﷺ، بل كان الأذان إذا صعد إلى المنبر، أما الأذان الآخر فهناك عند السوق، وليس في المسجد.

وهو أذان له حكمته وعلته، التي قد عرفت، وقد علم أنه عند انتفاء العلة، وعدم الحاجة يكون الأمر من قبيل البدعة.

وقد انتفت العلة الآن، وزالت الحكمة من زيادة الأذان، وذلك لكثرة المساجد، ووجود مكبر الصوت الذي يسمع أهل البلد أو الحي، وهناك تداخل أصوات المؤذنين في بعضها لكثرة المساجد مع ارتفاع مكبرات الصوت وتطويرها «الاستريو» فالذي يريد تنفيذ سنة سيدنا عثمان يجعل أذانًا في المسجد، والآخر هناك على نهاية صوت المؤذن الأول، ولكنه ما يذهب هناك إلا ويجد مسجدًا آخر أو أكثر يؤذن ويسمع بقية المنطقة فهل يعقل الناس هذا، حتى يدركوا أن الخلفاء لم يبتدعوا، وما حق لهم ذلك.

رضي الله عنهم وأرضاهم، وحشرنا في زمرتهم، ووفقنا للتمسك بهديهم - آمين!

* * *

المبحث السابع

حديث: « بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ»[1]

أخرج الإمام مسلم والترمذي وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء،** قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: **الذين يصلحون إذا فسد الناس**»، وفي رواية ثانية: «**الذين يصلحون ما أفسد الناس**»، وفي رواية ثالثة: «**هم أناس صالحون يسير بين أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»، وفي رواية رابعة: «**هم النزاع من القبائل ـ أو النزائح من القبائل**»، وفي رواية خامسة: «**هم الذين يحيون سنتي عند فساد أمتي**»، وفي رواية سادسة: «**هم الفرارون بدينهم، يجمعهم الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام**»[2].

هذا الحديث، أخطأ كثير من الناس في فهمه، وقلب كثير من الناس معناه، فظنوا أن الحديث يدل على أن الإسلام سينتهي مع غربته الثانية، بما فيه من دعوة لليأس والقنوط، حيث يتحدث الناس عن هزائم المسلمين ونكباتهم وذلهم وما يعانونه، مع الجهل بأمور الإسلام وتنحية شريعته، وغربة تعاليمه، فيعلق على تلك الأحداث بأنه ولم لا؟ والحديث يقول: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»، وهو وإن كان فيه جانب من الصحة مع وجود الغربة،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (الإيمان/ ١٤٥/ عبد الباقي).
(٢) انظر ضعيف الجامع (١٧١ ـ ١٤١١).

لكن الذي ليس صحيحًا أن يفهم أنه مع الغربة هذه سينتهي الإسلام، ويصبح لا وجود له، ومن ثم لا داعي للعمل أو الدعوة، ويبقى التثبيط والكسل، مع اليأس والقنوط.

ويبقى أن نعلم أن هذا الفهم الغريب، والمعنى العجيب لم يرده رسول الله ﷺ ولم يقصده، وإلا لقال:

«. . وسينتهي غريبًا» ولكنه قال: «... **وسيعود غريبًا**» وفارق بينهما كبير، فضلاً عن أنه ﷺ حث في ظل الغربة الثانية على أن نكون من الغرباء بقوله: «**فطوبى للغرباء**» ثم وصفهم بصفات تدل على العمل لعودة الإسلام بعد غربته، وقوته من بعد ضعفه، وانتشاره من بعد تقلصه، مع الصلاح والإصلاح والتمسك بالحق وإحياء السنة والمجاهرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا يختلف عما عليه فهم الناس للحديث فيما رأيناهم وخالطناهم، ورأينا في فهمهم التثبيط والرضا بالواقع والاستسلام لما هو كائن حتى يأتي قضاء الله.

نعم. . . للإسلام غربة ثانية كما كانت له غربة أولى ولكن ما ينتهي بعدها، بل سيعود، والإسلام مع غربته الأولى عاد قويًا، وكذا في الغربة الثانية سيعود قويًا، ولذلك فإن النبي ﷺ حفز الهمم، وأيقظ المشاعر، ودعا الناس إلى مزيد من العمل والدعوة وإلى مزيد من الجهد والإصلاح، بقوله: «**فطوبى للغرباء**» ثم ذكر ﷺ صفاتهم.

فهل يفهم من هذا أن الإسلام سينتهي؟ حاشا وكلا.

فكيف كانت غربة الإسلام الأولى؟

لقد كانت غربة نظرية، وأخرىٰ عملية، وأخذت كل صور الغربة.

حيث بعث الله نبيه محمداً ﷺ وأرسله علىٰ حين فترة من الرسل، في قوم أهل جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، ما يرون شيئًا أحب إليهم من عبادة الأوثان، وشرب الخمور، ووأد البنات، وسفك الدماء، وغير ذلك من صور الجاهلية المنكرة، يرزحون تحت عقيدة جاهلية وأحكام جاهلية، تسودهم الحمية الجاهلية، وتتنكب نساؤهم تبرج الجاهلية.

كانوا في جاهليات، يعيشون في ضلالات، ويحيون في ظلمات.

إلىٰ أن أرسل الله عز وجل النبي محمداً ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، ومن الضلالة إلىٰ الهدىٰ، ومن الكفر إلىٰ الإيمان، ومن الجاهلية إلىٰ الإسلام.

فدعاهم النبي ﷺ إلىٰ توحيد الله تعالىٰ **«أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»** فأنكروا عليه ذلك، واستغربوه، وقالوا: **﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾** [ص: ٥] وحين قال لهم: إني رسول الله إليكم خاصة وإلىٰ الناس كافة.

قالوا: **﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾** [المؤمنون: ٢٤] **﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾** [الفرقان: ٧-٨].

كما قالوا: **﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾** [الزخرف: ٣١] بدلاً من أن ينزل علىٰ يتيم بني هاشم، وحين قال لهم: **«والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون»**.

قالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧ـ٤٨].

كما قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

لقد أنكروا على النبي ﷺ أصول دعوته، وأسس رسالته «التوحيد ـ النبوة ـ البعث» واستغربوا ذلك وتعجبوا منه، على نحو ما أسلفنا مجملاً.

لقد كان الدين غريبًا عليهم في عقيدته، في شعائره، في شرائعه، في سلوكياته وأخلاقياته، ومن ثم لم يتحملوه، وتحملوا الصعاب في سبيل إطفاء هذا النور، والقضاء على هذا الدين، وتحولت الغربة النظرية للدين، إلى غربة عملية بالنسبة للمسلمين.

فكل من هداه الله لهذا الدين الحق، وشَعّ النور في قلبه، وخالط الإيمان بشاشته القلوب، ما تسمع بهم قريش إلا وتذيقهم صنوفًا من العذاب، وألوانًا من النكال، وصورًا من الأذى، قد يكون فوق قدرات البشر، مما لم يتحمله البعض، وخر شهيدًا، مثل «ياسر وسمية» حيث عذبا حتى الشهادة، وابنهما «عمار» احتمل مع شبابه وقوته، فضلاً عن أخذه بالرخصة ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

والنبي ﷺ ما كان يملك لهم من الأمر شيئًا، يمر عليهم وهم يعذبون، ويقول: **«صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»**.

واشتد التعذيب وكثر الإيذاء للنبي ﷺ وصحابته، ووقع الحصار، وتمت المقاطعة، مع هذه المحن الشديدة، والشدائد القاسية تربى الرجال من صحابة النبي ﷺ على يد قائد الأبطال ﷺ وقد قال الله لهم: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ـ٣].

كما قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ويأتي الصحابة للنبي ﷺ وقد توسد ببردته عند الكعبة، فيقولون: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا، ألا تستنصر لنا؟! فيقول ﷺ: **«إنه كان فيمن كان قبلكم يؤتى بالرجل فيوضع المنشار على مفرق رأسه حتى يشق نصفين، وإنه ليمشط بأمشاط من حديد ما بين لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون»**(١).

ومضت الأيام مع غربة الإسلام، واستضعاف المسلمين، ولكن جاء الفرج من الله تعالى كما بين ﷺ: **«واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»**(٢).

فكانت الهجرة الأولى للحبشة، فإن فيها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وأرسلت قريش في طلب مَنْ هاجر من المسلمين، ولكن باءت المحاولة بالفشل، مع عدل النجاشي رضي الله عنه.

ثم كانت الهجرة الثانية للمدينة «يثرب» بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية.

وأقيمت دولة الإسلام الفتية في المدينة المنورة، وبدت ملامح التمكين من بعد الاستضعاف، والقوة من بعد الضعف، والإيواء من بعد الخوف، والنصر من بعد الغربة.

كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (المناقب/ ٣٦١٢/ فتح).

(٢) هذا اللفظ أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧) وانظر كلام ابن رجب عليه في «جامع العلوم والحكم»

النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وانتصر المسلمون في غزوة بدر الكبرىٰ، وسماها الله «يوم الفرقان».

ووقعت هزيمة من بعد نصر في غزوة أحد. ونصر الله المسلمين في يوم الأحزاب من غير قتال، وأعلن النبي ﷺ بعدها أن قريشًا لن تغزوكم بعد اليوم.

وبدأت عزة الإسلام وقوته، بعد أن ذهبت غربته.

وأخذ المسلمون ينشرون هذا الدين، ويفتحون البلاد، ويهدي الله عز وجل علىٰ أيديهم العباد، وانتقلوا إلىٰ سائر الأنحاء والأرجاء، وشتىٰ الأقطار والأمصار، في شرق البلاد وغربها، لنشر دين الله تعالىٰ في الأرض، وإعلاء كلمة الله تعالىٰ.

وبعد أن انتشر الإسلام في الجزيرة العربية، وما حولها، انتقل إلىٰ ربوع الأرض، فقضىٰ علىٰ الإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية الرومانية، وزالت تلك الإمبراطوريات التي قامت علىٰ الجاهليات، علىٰ الظلم والفساد، وعلىٰ الحديد والنار.

وأعز الله المسلمين، ورضي الله عن فاروق الأمة «عمر بن الخطاب» إذ قال: «لقد كنا أذلة فأعزنا الله بالإسلام، ولو ابتغينا العزة في غير الإسلام لأذلنا الله».

عز هذا الدين، وعُزَّ المسلمون، ووقف «ربعي بن عامر» أمام كسرىٰ، وقائد جيوشه «رستم» إذ سألاه: من أنتم وما الذي جاء بكم؟ فقال: « نحن قوم ابتعثنا الله لنخرجَ من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة ا لدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام».

وانتهت غربة الإسلام الأولىٰ، وعُزَّ المسلمون وانتصروا وانتشروا في ربوع الأرض، ودانت لهم البلاد والعباد.

فكانت الغربة الأولىٰ عبارة عن ضعف بعده القوة، واستضعاف بعده التمكين، وخوف بعده الأمن واستخلاف من بعد الغربة والاستضعاف.

وظل المسلمون علىٰ هذا الحال قرونًا، لكن الأعداء لا ينامون ولا يسكتون، فعملوا علىٰ إضعاف المسلمين مرة ثانية، مع تفريق كلمتهم، وتمزيق وحدتهم، وتشتيت جهودهم، ليحققوا بذلك هم مآربهم، والفرقة داء خطير، ومرض جسيم، إذا حَلّ بأمة فتك بها فتكًا ذريعًا، فاستغل الأعداء هذا السلاح حيث ضربت الفرقة بأطنابها في جسم الأمة الإسلامية، ودب الضعف إلىٰ المسلمين مرة ثانية، ونالت منهم الشبهات، وانتشرت فيهم الشهوات، وكثرت فيهم البدع والخرافات، ومن ثَمّ توالت عليهم الهزائم والنكبات، وعمتهم الجاهليات، وسادت الضلالات.

وعاد الإسلام غريبًا عن المسلمين، فكثير من المسلمين لا يعرفون عن الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، وأصبح الإسلام بالنسبة لهم تاريخًا أو تراثًا أو انتسابًا، ثم هم لا يعلمون عنه شيئًا، وأما الذين يعلمون عن الإسلام شيئًا، أو له يعملون، فإما تحت راية الشيعة، أو راية الصوفية، أو رايات أخرىٰ ضلت عن الطريق المستقيم، والمنهج القويم، فلم تتمسك بحبل الله المتين، ولم تفهم قرآنه المبين، ولم تعمل بسنة خاتم النبيين وإمام المرسلين، سيدنا محمد ﷺ.

وصار الإسلام صورة باهتة، بل ممسوخة ومشوهة في كثير من الأحيان، وانحسر عن الحياة، وانحصر في العبادة في المسجد، وانزوىٰ في خلوة أو زاوية، وأصبح المتدين هو الذي يحافظ علىٰ الصلاة، ويمسك المسبحة ويقول عليها الأوراد والأذكار المرتبطة بالطريقة، وليست المشروعة عن رسول الله ﷺ.

وأما عامة المسلمين فهم يقولون لا إله إلا الله، ويرددون الحديث «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة**»وبذلك عادت للإسلام غربته الثانية، واستغرقت قرونًا

حتى بلغت نهايتها في زماننا الذي هو آخر الزمان، وفيه فتنٌ يصير فيها الحليم حيرانًا، وبلغ الفساد منتهاه والظلم مداه.

ثم ماذا؟ ومع هذه الغربة بدت بوادر العودة، ومع هذه الظلمة شع شعاع من نور، ومع اليأس الذي عم، تسرب خيط من أمل يبشر بفجر لاح في الأفق من بعد ليل طويل، ظلامه دامس؛ لتتحقق سنة كونية ثابتة لا تقبل التغيير ولا التبديل، أنَّ بعد الليل فجرًا، وأنَّ مع العسر يسرًا.

ولتتحقق نبوءة النبي محمد ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[1].

وقد كان من ذلك ما شاء الله تعالى حيث قيض الله عز وجل رجالاً وأئمة ودعاة يذودون عن حياض هذا الدين، ويدعون للإسلام في شموليته وكماله، بتمامه وجماله، يعلمون الناس أن الإسلام دين كامل، له شعائر، وفيه شرائع، عبادة وحكم، ودعوة وجهاد، ودين ودولة، دين ينظم كل شئون الحياة، فهو ليس في المساجد فقط بل في البيوت والشوارع والمجامع والمصانع، وفي كل شيء يجمع بين المثالية والواقع، في منهج متفرد ليس إلا لهذا الدين العظيم، الذي جاء للبشرية بأسرها، وفيه صلاح الدنيا والآخرة.

ولكن جهود الأعداء لم تفتأ تعمل على إطفاء هذا النور، وإخماد تلك الصحوة، والقضاء على ذلك الشعاع اليسير، وإنامة ذلك المارد الذي إذا تململ واستيقظ مرة أخرى سيقضّ مضاجعهم، ويفضح زيفهم، ويعكر عليهم صفو فسادهم، ويزيل دولتهم التي قامت على الظلم والعدوان، وإمبراطورياتهم التي قامت على الفساد والاستبداد.

فهم يحاولون إطفاء هذا النور قبل أن ينتشر مرة أخرى، ولكن أنّى لهم، وقد وعد الله عز وجل ببقائه وانتشاره، وعودة الدين وانتصاره، فقال الله في

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في (الملاحم/ ٤٢٩١) وهو في «صحيح الجامع» (١٨٧٤).

محكم كتابه : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣] .

ومثيلتها في سورة الصف ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٨-٩] .

والآية الأولىٰ تحدثنا عن الحاضر ، والثانية تحدثنا عن المستقبل ، ومعناه لن ينطفئ نور الله الآن ، ولا في المستقبل ، ولا توجد قوة علىٰ ظهر الأرض تستطيع أن تفعل ذلك ، والله إذا أراد أمرًا أنفذه ، وأمره بين الكاف والنون ، يقول للشيء كن فيكون .

وأما عامل الزمن فقد ارتبط بأسباب ومسببات ، وسنن ثابتة لله عز وجل .

فالإسلام نور الله ، ونور الله لن ينطفئ ، وبماذا؟ بأفواههم!

إن الأفواه لا تستطيع أن تطفئ نور لمبة كهربائية ، ولن تستطيع الأفواه ولا الأيدي أن تطفئ نور الشمس ولا أن تحجبها عن الناس ، فأنىٰ لها أن تطفئ نور الله ! !

ومع ذلك ، فللأعداء جهود جبارة ، تنفق فيها ميزانيات هائلة تعمل علىٰ إطفاء نور رب العالمين ، والقضاء علىٰ المسلمين ، أو تنصير وتشكيك المؤمنين ، وزعزعة الدين واليقين . .

ولكن يطمئننا أحكم الحاكمين ، فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦] .

فالذين كفروا ينفقون أموالهم ، ولم يقل الله تعالىٰ : من أموالهم ، كما قال في حق الزكاة مثلاً : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] لا ،

بل قال هنا: ينفقون أموالهم، ولماذا ينفقونها إذا استدعى الأمر؟ هل في سبيل الله، أو في سبيل السلام، أو من أجل الخير، ومن أجل صلاح البشرية، ومن أجل الضعفاء والفقراء؟! كلا، بل ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالهدف واضح، والغاية محددة.

والذي يريد أن يفهم بعض حقائق هذه الآية عليه أن يطلع على بعض الميزانيات التي وضعت لتنصير المسلمين، أو ما تضعه أمريكا مثلاً من ميزانية لحرب دولة مسلمة كالذي حدث في العراق أو أفغانستان . . . !!

أو الميزانيات التي توضع للقضاء على الصحوة الإسلامية باسم القضاء على الإرهاب والتطرف . . . إلخ.

ولكن ماذا عن النتيجة؟ يعلمك بها العليم الخبير ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ وهذا على سبيل الاستدراج والإمهال لأنه سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٧]، و«**إن الله يملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1] [هود: ١٠٢].

خاتمة المطاف ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ وإذا قال الله ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ فلا تسأل كيف يغلبون؟ لأنه سبحانه قال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠] كما قال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٧] وكذلك قال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧] وكما قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[آل عمران: ١٢٠]، هنا قال مبيِّنًا المصير الأخروي من بعد المصير

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (التفسير/ ٤٦٨٦/ فتح) مسلم في (البر والصلة/ ٢٥٨٣/ عبد الباقي).

الدنيوي ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾.

والحكمة ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وفي واقعنا نرى أن الله سبحانه وتعالى دمَّر إمبراطورية الإلحاد والكفر والفساد، المسماة «بالاتحاد السوفيتي» إلى الأبد، وبقيت أمريكا الآن تصول وتجول، وتقول بلسان الحال والمقال: من أشد منا قوة؟ ونحن نعلم أن الله تعالى الذي خلقهم هو أشد منهم قوة.

ونرى أمريكا وهي ترقص الآن رقصة الموت، ونوقن أن الذي أباد الاتحاد السوفيتي قادر على أن يبيد أمريكا، ويبيد كل الظالمين، ولكن متى هو؟ ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١].

إن الإسلام قادم، وعودة الإسلام لاحت بشائرها في الأفق، وبدا شعاع من نورها، وبصيص من الأمل يلوح في الآفاق أن الإسلام قادم، ولكن «**اعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج من الكرب، وأن مع العسر يسرًا**»(١).

كما وعدنا ربُّنا سبحانه وتعالى بذلك، لقد وعدنا بالنصر والأمن والتمكين والاستخلاف في الأرض لكن بشرط أن نحقق العبودية الحقة لله تعالى مع عدم الوقوع في الشرك بأي صورة من الصور.

كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

كما وعدنا الله تبارك وتعالى بعودة المسجد الأقصى، وأننا سندخله مرة ثانية كما دخله الصحابة رضي الله عنهم أول مرة، وذلك في آيات سورة

(١) تقدم قريبًا جدًا

الإسـراء، ومنهـا ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧].

وها هي الكرَّة الآن لليهود أو لبني إسرائيل، ولكن الأيام دول ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ويبقى وعد الآخرة، وعلامته ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] وقد جاءوا لفيفًا حول المسجد الأقصى، والآن يبنى الجدار الواقي حول الأرض المحتلة وبداخلها القدس، لننسى القضية برمتها، ولكن لا والله، لابد أن يتحقق وعد الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩] فليبنوا جدارًا واقيًا، وليقيموا حصونًا منيعة، فهذا دأبهم دائمًا وأبدًا ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

ولكن كما هدمت تلك الحصون عليهم في غزوة بني قينقاع وبني النضير، وبني قريظة وخيبر قديمًا، وجاس الصحابة فيها خلال الديار، وكما هدم عليهم «خط بارليف» حديثًا، فإن جدارهم الواقي سيكون مقبرتهم بإذن الله تعالى.

فهذا وعد من الله تعالى، وكذا وعد من رسوله ﷺ حين أخبر وهو الصادق الذي لا ينطق عن الهوى: **«لن تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيختبئ اليهود خلف الحجر والشجر، فينطق الله الشجر و الحجر يقول: يا مسلم يا عبد الله، تعال ورائي يهودي فاقتله، إلا شجر الغرقد فإنه من غرس اليهود»**[١].

كما بشرنا ﷺ بفتح روما «الفاتيكان»، فقال ﷺ: **«إنكم ستفتحون من بعدي رومية والقسطنطينية»** قيل يا رسول الله: أي المدينتين تفتح أولا؟ قال: **«مدينة هرقل»**، يعني القُسطنطينية»[٢].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الجهاد / ٢٩٢٦/ فتح) مسلم في (الفتن/ ٢٩٢٢/ عبد الباقي).

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٠٧)، الدارمي في (المقدمة/ ٤٨٦).

وقد تم فتحها الأول على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م، وبقيت روما لم تفتح، وستفتح بإذن الله تعالى، وبفتحها تفتح أوربا كلها وتسلم بإذن الله تعالى بعد أن أصبحت روما العاصمة الروحية للاتحاد الأوربي.

كما بشرنا ﷺ بعودة الحكم بكتاب الله، وتطبيق شرع الله مع خلافة راشدة في نهاية المطاف، كما كانت في أوله من بعد النبوة، حيث قال ﷺ: «**ستكون فيكم النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة راشدة على نهج النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عضوضًا ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون حكمًا جبريًا ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة راشدة على نهج النبوة**» ثم سكت ﷺ.

وعند النظر في هذا الحديث، وإسقاطه على الواقع، نجد أنه تحدث عن خمس مراحل لتاريخ الأمة، بدأ بالنبوة، وقد كانت هي الخاتمة للنبوات ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤١].

ثم المرحلة الثانية: كانت الخلافة الراشدة، ثلاثون عامًا، على يد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

ثم المرحلة الثالثة: الملك الوراثي العاض أو العضوض، وقد بدأ بالدولة الأموية، ومضى ليستغرق قرونًا عديدة، كلها قامت على الحكم الوراثي مثل الدولة الأموية والعباسية والإخشيدية والأيوبية والفاطمية، والمماليك والدولة العثمانية، والهاشمية والسعودية، والمغربية...

ثم كانت المرحلة الرابعة: الحكم الجبري المبني على الجبر والقهر والظلم، وهو السمة السائدة، لكل أنظمة الحكم في العالم الآن، على اختلاف الرايات والأسماء والمسميات.

فماذا ننتظر؟

ننتظر المرحلة الخامسة والأخيرة «خلافة راشدة على منهاج النبوة» الله أكبر. . خلافةٌ وصفتها أنها راشدة، ثم هي على منهاج النبوة، كالتي كانت بعد النبوة، فالله أكبر، ثم الله أكبر، ثم الله أكبر.

والعظمة في أنها نهاية المطاف «ثم سكت ﷺ».

ومع هذه الخلافة الراشدة التي نرنو إليها، تأتي تلك البشارة العظيمة، والعظيمة جدًّا، حيث يقول ﷺ: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر - طين أو شعر، كوخ أو خيمة - إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل الله به الكفر وأهله**»[1].

وبذلك يتحقق موعود الله، وينتصر الدين، وكذا ينتشر، فبهذا يعود الإسلام من بعد غربة، والسعيد من كان من الغرباء، ومن جند الله الأوفياء الذين يعملون لنصرة هذا الدين وعودته، وانتشاره وقوته.

ومن هؤلاء؟ إنهم الغرباء «**فطوبى للغرباء**» أي لهم الحسنى، لهم الجنة، لهم أشجارها وثمارها. .

قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ هذه صفاتهم، وتلك أحوالهم.

«**الذين يصلحون إذا فسد الناس**»، فهم ليسوا إمعة يقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن أساءوا أسأنا، وإن ظلموا ظلمنا، كلا ولكنهم وطنوا أنفسهم على أن يحسنوا وإن أساء الناس، وأن يصلحوا أنفسهم وإن فسد الناس.

«**والذين يصلحون ما أفسد الناس**»، فهم صالحون في أنفسهم، ومصلحون لغيرهم.

حتى لا ينحصر صلاحهم في ذواتهم، ولكنهم يدعون غيرهم، فهم عرفوا

(١) أخرجه أحمد (١٦٥٠٩).

مهمتهم، صلاح أنفسهم ودعوة غيرهم، وقد أخذوا هذا من كتاب ربهم، في سورة قصيرة لو عمل الناس بمقتضاها لكفتهم ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣] صلاح وإصلاح.

«**والذين يحيون سنتي عند فساد أمتي**»، وذلك بإحياء السنن التي ماتت، وإعادة السنن التي تركت، فيكون لهم أجرها وأجر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وكذلك بترك البدع، وهجر الخرافات، ومحاربة الإسرائيليات، والذين يفعلون هذا، لا شك أنهم مع الغربة سينالهم الأذىٰ، فتأتي تلك الصفة.

«أناس صالحون يسير بين أناس سوء كثير»، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم ومن ثم لا يضرنك قلة السالكين، ولا يغرنك كثرة الهالكين، فإن الله يقول: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣] كما قال: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦] ويقول: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١] فليس يعرف الحق بكثرة أتباعه، أو الباطل بقلة أتباعه، بل القلة هي المؤمنة ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤] ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] وأما الكثرة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩] ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر: ٦١] ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧، يوسف: ٦٨، النحل: ٣٨] ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وأمام هذا، فماذا يفعل هؤلاء الغرباء؟

«**هم الفرارون بدينهم، يجمعهم الله إلى عيسى بن مريم عليه السلام**» فليقبض أحدنا علىٰ دينه ولو أن يكون كالقابض علىٰ الجمر، ولينتظر الفرج، ويرجو النصر، ويأمل أن يجمعه الله مع خليفة المسلمين، ومع عيسىٰ بن مريم عليه السلام، وقد أظلنا زمانه.

فعلينا أن نأخذ بأسباب النصر - المادية والمعنوية - فإن الأمر كما قال الله: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٥].

لأنه لابد من نصرة هذا الدين بنا أو بغيرنا، فإن كان بنا فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن لم يكن بنا، كان بغيرنا ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ما مثالهم يا الله؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦].

وما ذلك إلا لأن الإسلام قادم، والإسلام سيعود، ولو لم يكن أهل الإيمان كثرة، وإن كانوا غرباء، فهم الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية.

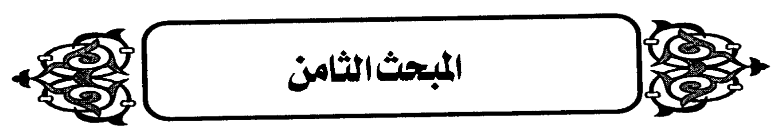
وكما قال ﷺ: «**لن تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم - خذلهم - حتى يأتي أمر الله وهم كذلك - أو - وهم على ذلك**»[1].

كما قال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**» قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»، - وفي رواية «**قال: هي الجماعة**»[2].

* * *

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (العلم/ ٧١/ فتح)، مسلم في (الإمارة/ ١٠٣٧/ عبد الباقي) من حديث معاوية رضي الله عنه وهو عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) **صحيح**: انظر طرقه والكلام عليه في «الصحيحة» (٢٠٣-٢٠٤).



المبحث الثامن

حديث: «افترقت اليهود...»

أخرج أبو داود والترمذي وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: الجماعة»**[1].

وفي رواية: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة في الجنة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة: كلها في النار إلا واحدة في الجنة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة في الجنة، قيل من هي يا رسول الله؟ قال: « ما أنا عليه وأصحابي»**.

وفي رواية: **«افترق أهل الكتاب على إحدى وسبعين فرقة، أو على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة: كلهم في النار إلا واحدة، قيل من هي: يا رسول الله؟ قال: « الجماعة»**.

فالحديث صحيح - وإن شكّك فيه البعض - وهو من جنس الأحاديث التي تحذر من الفرقة، وترهب منها، ولكن الفهم الخاطئ للحديث، الذي يوقع الناس في تكفير بعضهم بعضًا، هو ضيق الأفق في فهم الحديث، كمن يريد أن يعرف من هي الثنتين وسبعين فرقة التي في النار، فينظر حوله، وفي محيط بلده، فيجد بعض الجماعات أو الجمعيات أو الأحزاب والرايات، فيعد هذه من الفرق، فعندنا في مصر يقول: هل هي السلفية، أو الإخوان المسلمين، أو الجماعة الإسلامية، أو الجهاد، أو الجمعية الشرعية أو أنصار السنة المحمدية،

---

(١) صحيح: انظر الهامش السابق.

أو الصوفية، أو التبليغ والدعوة . . . وهكذا مثلاً، وهنا يضطرب عليه الأمر ما بين موسع ومضيق، فالموسع يجد أن الجمعيات والطرق المسجلة مثلاً تزيد بكثير عن الاثنين وسبعين فرقة، والمضيق يعد الرايات التي ذكرنا أهمها فلا يجدها توفي العدد المذكور في الحديث، فيقع كلاهما في فهم مقلوب للحديث، وخطأ في الفهم، كما يتمثل الفهم الخاطئ أيضًا فيمن راح يبحث عن الفرقة الناجية من بين تلك الجماعات، فراح أتباع كل جماعة يظنون أو يعتقدون أنهم الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة، حيث زعمتها لنفسها كل راية ترىٰ أنها علىٰ الحق، وغيرها علىٰ باطل وضلال.

وهذا ـ كما ترىٰ ـ فَهْم خاطئ للحديث، وظلم له، كما أنه ظلم للمسلمين الذين حكم عليهم بأنهم من أهل النار، كما ظلم نفسه إذ حصر الفرقة الناجية في نفسه وجماعته، وهذا من التألي علىٰ الله تعالىٰ.

وليس الأمر كذلك، فالحديث وإن كان بين أن الفرقة كائنة وأن الاختلاف واقع، إلا أنه يدعونا للتمسك بالجماعة التي تعتصم بحبل الله، وتتمسك بسنة رسول الله ﷺ والتي أهم صفاتها أن تكون علىٰ ما كان عليه النبي ﷺ وصحبه الأطهار الأبرار.

كيف يصح فهم أناس لحديث طبقوه علىٰ مجتمعهم فقط، وحصروه في زمانهم فحسب؟!

والحديث يحدثك عن أمة الإسلام بتاريخها الطويل الممتد قرونًا، والذي بدأ ببعثة النبي ﷺ وينتهي بقيام الساعة، أو حتىٰ يأتي أمر الله.

هذا والفُرقة المذكورة في الحديث، والفرق التي أشار إليها النبي ﷺ ممتدة الجذور منذ قامت لهذا الدين قائمة، وأصبحت له دولة بعد هجرة النبي ﷺ وقويت شوكة المسلمين، حيث ظهرت أولىٰ هذه الفرقة لتضرب بأطنابها في جسم الأمة الإسلامية، حيث ظهر «النفاق» ووجد «المنافقون» في حياة النبي ﷺ ـ يتزعمهم عبد الله بن أبيٍّ بن سلول زعيم المنافقين ورأس النفاق، يتظاهرون

بالإسلام ويبطنون الكفر، ويقولون ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ [آل عمران: ٧٢].

فهذه الفرقة هي أخطر الفرق الثنتين والسبعين، وهي الأم التي أنجبت بنات كما كان لها أخوات من تلك الفرق المشار إليها، وهؤلاء وإن كان ظاهرهم الإسلام لكن باطنهم الكفر، ويبقى الحكم لهم - عند الناس - بالظاهر، وأما عند الله تبارك وتعالى فقد أعلن حكمهم ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ الآيات [البقرة: ٨].

كما بيّن جزاءهم ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا﴾ [النساء: ١٤٥].

هذا ولئن كان قد أخفق المنافقون في مهمتهم التي أرادوا بها هدم الإسلام، والقضاء على المسلمين، أيام النبي ﷺ وذلك لنزول القرآن يفضح كيدهم، ويظهر مكنونهم، ويبين مؤامراتهم ومؤتمراتهم، فإنهم قد نجحوا بعد انقطاع الوحي بموت النبي ﷺ ولذلك راحوا يخرجون من جحورهم بعد موت النبي ﷺ، ويدهم كانت ظاهرة في الفتن التي وقعت أيام خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وإن حاولوا إخفاءها، فكانوا من وراء المرتدين، كما كانوا عونًا للمتنبئين، وظهيراً لمانعي الزكاة الناكثين، وسنداً لكل من أراد طعن الدين، فظلت تعمل يد المنافقين، حتى قضى «أبو بكر» رضي الله عنه على الفتنة في مهدها، وجاء فاروق الأمة «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه فأجلاهم عن الجزيرة العربية، ولكن من بعيد خططوا لقتل «عمر بن الخطاب»، وكانت اليد المنفذة للمؤامرة «أبو لؤلؤة المجوسي».

فلما كانت خلافة «عثمان بن عفان» رضي الله عنه ظهر رأس النفاق الثاني «عبد الله بن سبأ» الملقب «بابن السوداء» وحيث أخفق «ابن سلول» نجح «ابن سبأ» - عليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين - حيث اتهم سيدنا عثمان رضي الله عنه باتهامات ما أنزل الله بها من سلطان، وأخذ يؤلب الناس ضده،

كما زعم مزاعم، منها أن «عليًا» رضي الله عنه أولى الناس بالخلافة، وهو وصي رسول الله ﷺ وأن لكل نبي وصيًا، وعلي هو الوصي لرسول ﷺ، كما قال بالرجعة.

وادَّعى محبة آل البيت، وبالغ في هذا الادِّعاء حتى أسس فرقة «السبأية» تنسب إليه، وكانت النواة الأولى لفرقة الشيعة التي كبرت وانتفخت، وفرخت فرقًا شتى، منها: الدروز، والنصيرية، والغرابية، والإسماعيلية، والبهرة، والباطنية، والإمامية الاثنا عشرية.. إلخ بما لكل فرقة من معتقدات، كمن ادعى ألوهية علي، أو ادعى نبوته، أو تكفير الصحابة، أو قال بنسخ رسالة النبي محمد ﷺ، أو بتعديه على النبوة،... إلى آخر مزاعمهم، وليس هنا مجال تفصيلها».

وفي ظل الفتن التي أجّج نارها «ابن السوداء» - عليه لعنة رب الأرض والسماء - اختلف الناس على أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه بسبب قتل عثمان رضي الله عنه فكان ذلك سببًا في موقعة «الجمل» أولاً، و «صفين» ثانيًا، ومع موقعة «صفين» أطلت الفتنة برأسها مرة أخرى، بعد قضية التحكيم - في صورة فرقة كبيرة من الفرق الثنتين والسبعين، ألا وهي «الخوارج» وهذه أيضًا بدورها صارت فرقًا شتى.

وعلى إثر وجود فرقة الخوارج، والتي تبنت قضية التكفير، إما بتكفير الصحابة - رضي الله عنهم - وإما بتكفير مرتكب الكبيرة، إلى آخر مبادئهم، ظهرت فرقة «المرجئة» لا تكفر أحدًا بذنب أصلاً، وتقول: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

والإيمان عندهم هو قول لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ولو باللسان فقط، أو بالقلب فقط ولا دخل له بالعمل، كما لا يلزم فيه الإقرار باللسان عند بعضهم كما لو نطق بالكفر بلسانه دون الاعتقاد بقلبه لا يكفر ولا يضره ذلك.

ومع تفرق الناس حول حكم مرتكب الكبيرة، هل هو مؤمن كامل الإيمان

كما ترىٰ المرجئة - أو كافر خارج عن دائرة الإسلام - كما ترىٰ الخوارج؟

ظهرت بدعة جديدة، وهي قول «واصل بن عطاء» أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، ليس هو بالمؤمن، ولا بالكافر، وراح يدرس هذا المذهب وقد اعتزل أستاذه «الحسن البصري» الذي قال عنه «اعتزلنا واصل» وبذلك كانت بداية فرقة «المعتزلة» تلك الفرقة الكبيرة أيضًا، **والتي تبنت الأصول الخمسة:**

١ - **التوحيد:** وهو: عندهم - نفي صفات الله تعالىٰ وتنزيهه عن ذلك حتىٰ لا تتعدد الذات بتعدد الصفات فالقول بأن لله صفات قديمة قدم الذات هذا هو التعدد والشرك الذي يتنافىٰ مع التوحيد.

٢ - **العدل:** الذي اقتضىٰ عندهم أنه يجب علىٰ الله تعالىٰ فعل الصلاح والأصلح لعباده، لأنه عادل فلا يصدر منه إلا ما فيه خير ومصلحة العباد، ولذلك فالله لا يخلق الظلم أوالشرك أو الشر أو المعصية، ولا ينسب إليه.

٣ - **القول بالمنزلة بين المنزلتين:** وهي بدعة ابتدعها «واصل بن عطاء» زعيم المعتزلة في حكم مرتكب الكبيرة، عندما رأىٰ أنه لا يكون مؤمنًا ولا يكون كافرًا، علىٰ نحو ما أشرنا.

٤ - **وجوب الوعد والوعيد:** حيث أوجبوا علىٰ الله تعالىٰ كما وعد الطائعين بالثواب علىٰ فعل الطاعة، فإنه يجب أن يعذب العاصين بالعقاب الذي أوعد به علىٰ ارتكاب الذنوب والمعاصي.

٥ - **وجوب العلم والنظر:** وفرعوا عليه وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقديم العقل علىٰ الشرع، والقول بالحسن والقبح العقليين، ووجوب قتال الحاكم إذا فسد أو ظلم.

ومن أخطر مبادئ المعتزلة القول بخلق القرآن الكريم، الذي انبنىٰ علىٰ مبدأ التوحيد عندهم، والذي فيه نفي صفات الله تعالىٰ، ومنها كلامه سبحانه وتعالىٰ.

وكذلك القول بنفي القدر، فهم معطلة، وقدرية، واجتمع فيهم شر كثير.

هذا . . . ومن جانب آخر من الفرق المعنية في الحديث، ظهر قوم يتحدثون عن القضاء والقدر، فلم يستطيعوا فهمه، وإدراك حقيقته، ومعرفة المراد منه، فضلَّ بسبب ذلك أقوام، منهم:

فرقة عرفت «بالقدرية» لكثرة حديثها عن القدر، ولكنها أنكرته، وقالت بهذا المبدأ «لا قدر والأمر أُنُف» - أي مستأنف والله لم يكتبه في اللوح المحفوظ، ولم يعلمه إلا بعد وقوعه!! تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ووجدت فرقة تضاد هذه - كرد فعل لها -.

وهي فرقة «الجبرية» آمنت بالقدر، وأعلنت بأن الإنسان مجبر علىٰ كل شيء، وأنه مسير في كل أمر، وهو مطيع علىٰ كل حال، آمن أو كفر، أطاع أو عصىٰ، لأنه كالريشة في مهب الريح، تسيرها الأقدار كما تشاء.

وقالوا:

جرى قلم القضاء بما سيكون ... فسيان التحرك أو السكون

جنون بك أن تسعى لرزقك ... ويرزق - في غيابته - الجنين

ومن لم يدر مع من يكون الحق - بهذا الفهم الخاطئ - أمع القدرية التي أنكرت القدر، حتىٰ لا تنسب الظلم إلىٰ الله، أم مع الجبرية التي أثبتته، مع نفي المسئولية تمامًا عن العبد، ومع هذا الضلال في الفهم، وعدم التوفيق في معرفة القدر كما عرفه السلف الصالح، أو آمن به أهل السنة والجماعة، **وجدت فرقة حيرى، لا تثبت القدر ولا تنفيه، بل هي متشككة في ذلك، عرفت باسم «الإبليسية»:**

وحول هذه القضية جاء الحديث عن يحيىٰ بن يعمر قال: أول من تكلم في القدر «مَعْبَد الجهني» قال: فخرجت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حتىٰ

أتينا المدينة، فقلنا: لو لقينا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما أحدث هؤلاء القوم، قال: «فلقيناه -يعني عبد الله بن عمر- وهو خارج من المسجد فقلت: يا ابن عمر: ظهر قوم قِبَلنا يتقَفَّرون العلم -أي يبحثون عن غوامضه- يزعمون أن لا قدر والأمر أُنف، فماذا تقول يا ابن عمر؟ فقال: أخبر هؤلاء أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به «ابن عمر» لو أن لأحدهم مثل جبل أحد ذهبًا فأنفقه ما تقبل منه حتىٰ يؤمن بالقدر، ثم ذكر الحديث عن أبيه، قال: سمعت أبي «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه يقول: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ -إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر . .» وذكر الحديث المعروف بطوله، وفيه: «**وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**» وفي رواية «**حلوه ومره**»[١] .

فتلك فِرَق ضلت في فهم القضاء والقدر، ولو بحثتَ عن أساس فكرتها لوجدته من قبل اليهود أو النصارىٰ، لإضعاف العقيدة الإسلامية.

فأول من نفىٰ القدر «غيلان الدمشقي» وقيل: بل «معبَد الجهني» كان أسبق من صاحبه غيلان، وكان قد تلقىٰ هذا المذهب عن رجل من أهل العراق وكان نصرانيًا ثم أسلم ثم ارتد وتنصر.

وقيل: كان يدعىٰ أبو يونس سنسويه.

وأول من قال بالجبر «الجعد بن درهم» الذي تلقىٰ مذهبه هذا من يهودي بالشام اسمه «طالوت بن أعصم» عن خاله «لبيد بن الأعصم اليهودي» ثم تلقاه عنه «الجهم بن صفوان» رئيس الطائفة «الجهمية»، نفاة الصفات المعطلين، وهم طائفة من المعتزلة. وهو مذهب اليهود والنصارىٰ والمشركين كذلك.

هذا . . . وفيما ارتبط بالأسماء والصفات ظهرت فرق أخرىٰ عرفت -علىٰ

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (الإيمان/ ٨/ عبد الباقي) وأما اللفظ الثاني فأخرجه ابن ماجه في (المقدمة/ ٨٧).

الجملة - «بالصفاتية» ويندرج تحتها فرق كثيرة، تحدثت عن «الأسماء والصفات» مع قضايا أخرى توافق فيها «أهل السنة والجماعة» أو تخالفها.

كما نلاحظ أن هذا اللقب «الصفاتية» أطلق على السلف الصالح، حيث أثبتوا الأسماء والصفات لله عز وجل.

فأطلق عليهم مخالفوهم هذا اللقب.

ولما كان المعتزلة ينفون الأسماء والصفات، سموا «معطلة»؛ لأنهم ينفون زيادة الصفات على الذات الإلهية فقد عطلوا مدلول الصفة عن معناه.

وفي مقابلهم بالغ أناس في إثبات الصفات إلى حد التشبيه بصفات المحدثين، وعرفوا «بالمشبهة» أو «بالمجسمة».

وهؤلاء على نوعين:

منهم من قال: إن الله جسم كالأجسام.

ومن قال: هو جسم ولكن ليس كالأجسام.

وهناك من تأول الصفات كتأويل الوجه بالذات، والعين بالرعاية، واليد بالقدرة، والاستواء بالاستيلاء، والنزول بنزول الرحمة، والمجيء بمجيء الملك... إلخ.

وهناك من توقف في اللفظ، ومن توقف في معنى اللفظ، وفرق بين المعنى والكيف...

وحول هذه القضية ظهرت تلك الفرق «الحشوية» الذين أسرفوا في التمسك بظاهر الآيات والأحاديث. حتى وقعوا في التشبيه والتجسيم، ولهم آراء أخرى اختصت بها فرقتهم.

وفرقة «الكرامية» وهم من أهل التجسيم أيضًا، ويقولون بالحسن والقبح العقليين كالمعتزلة، ويزعمون قيام الحوادث بذاته - سبحانه وتعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا!

ومن الفرق الكبيرة أيضًا «الأشاعرة» وكذا «الماتريدية».

وبينهما وبين أهل السنة عموم وخصوص، ووجوه التقاء، ووجوه خلاف.

فهما - على الجملة - أقرب الفرق لأهل السنة والجماعة، وإن لم يكونا أهل سنة وجماعة صرف، كما هو مشهور عنهما، ويدرس لأبنائنا، في الأزهر أو غيره.

لأن الأشاعرة: أتباع الإمام «أبي الحسن الأشعري» قد مرت بمراحل، مر بها الشيخ أبو الحسن الأشعري تجاوزها الشيخ بالرجوع إلى مذهب السلف، والقول بما قاله الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أهل السنة والجماعة، في الوقت الذي وقفت الأشاعرة - أي الأتباع - عند المرحلة الثانية للإمام، والقول بتأويل الأسماء والصفات، كما خالفوا أهل السنة أيضًا في قضايا أخرى منها: مصدر التلقي، ومفهوم التوحيد، ومعنى الإيمان، ومضطربون في قضية التكفير، ومختلفون فيها اختلافًا كبيرًا إلى غير ذلك مما خالف فيه الأشاعرة أهل السنة والجماعة، كما خالفوا إمامهم «أبا الحسن الأشعري» أيضًا. الذي سجل مذهبه الصحيح في كتابه «الإبانة عن أصول الديانة» والذي عبر فيه عن تفضيله لعقيدة السلف الصالح ومنهجهم، والذي هوآخر ما ألف من الكتب على أصح الأقوال، رجع فيه عن كثير من آرائه الكلامية إلى طريق السلف في الإثبات وعدم التأويل.

وكذلك «الماتريدية»: أتباع «أبي منصور الماتريدي» في الأسماء والصفات منهم المؤولة، ومنهم المفوضة، ومن رجح التأويل على التفويض، أو عكس، ومن أجاز الأمرين، ولا يأخذون بالأحاديث الآحاد في العقائد والأحكام، وتقديم العقل على السمع في وجوب معرفة الله تعالى، والتسوية بين توحيد الربوبية والألوهية، إلى غير ذلك مما قالوه مخالفين بذلك أهل السنة والجماعة، الذين هم وسط في الفرق، كوسطية الإسلام بين الملل والنحل، وسنشير - بعدُ إن شاء الله - إلى مذهبهم.

هذا ومن الفرق الضالة التي أشار الحديث إليها دون ذكر أسمائها، كل فرقة انحرفت عن الدين، أو اتخذت الغلو منهجًا لها، أو أنكرت معلومًا من الدين بالضرورة، أو أدخلت على الدين ما ليس منه، مخالفة بذلك صريح القرآن، أو صحيح السنة، فيما لا يحتمل التأويل.

ومثال ذلك من فرق الضلالة «الباطنية» التي أولت كل شيء في الدين بتأويل باطني، وزعمت أن للشريعة ظاهرًا وباطنًا، فالناس يعلمون الظاهر، وأما الباطن فلا يعلمه إلا الإمام، ومن أمثلة ذلك أن الصيام هو الإمساك عن كشف السر، والبعث هو الاهتداء إلى مذهبهم، . . إلخ.

وهؤلاء الباطنية لهم ألقاب أخرى كالقرامطة والمزدكية والتعليمية والملاحدة، والزنادقة، وهم أصناف: الإسماعيلية القرامطة، والإسماعيلية الفاطمية، والإسماعيلية الحشاشون، والإسماعيلية البهرة والبهرة السليمانية، والبهرة الداودية، والإسماعيلية الأغاخانية، والدروز، وهم - على الجملة - متشعبون عن الشيعة الغلاة، وهم - على اختلاف طوائفهم - لهم معتقدات باطلة، لا تَمُتُّ للإسلام بصلة، فهم قوم ظاهرهم الرفض (أي رافضة) وباطنهم الكفر المحض.

وكيف لا؟ إذا علمت عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها وإنكار الشرائع، وإلغاء الأحكام الإسلامية الأساسية كالصلاة والصوم وسائر الفرائض الأخرى، وإبطال القول بالمعاد والعقاب، وأن الجنة هي النعيم في الدنيا، والعذاب هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد.

ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وقبائح هم لها فاعلون، فكم أحدثوا في الإسلام بدعًا، وفتقوا فيه فتقًا، وكم فتكوا بالحجاج ألوفًا، واستحلوا البلاد عنفًا، وهاجموا بلد الله الحرام، وهدموا زمزم، ونزعوا كسوة

الكعبة، واختلعوا الحجر الأسود، وجعلوه إلىٰ الإحساء عشرين عامًا، وملئوا المسجد الحرام بالقتلىٰ . . إلخ.

وأسسوا دولة شيوعية تقوم علىٰ شيوع التوارث وعدم احترام الملكية، وجعلوا الناس شركاء في النساء، بحجة استئصال أسباب المباغضة، فلا يجوز لأحد أن يحجب امرأته من إخوانه.

ومن الفرق «البابية»: التي تزعمها الباب، وظل يقول أنا باب المهدي، ثم زعم أنه المهدي، ثم زعم أنه نبيٌّ، ثم ادعوا له الألوهية فادّعاها لنفسه، وقال - قولة فرعون -: ما علمت لكم من إله غيري، وزعم أن الديانة البابية نسخت الشريعة الإسلامية، وأن الباب حلت فيه روح الإله، وأنه هو المرآة التي يتجلىٰ فيها الإله في صورة بشرية.

ثم جاء من بعده «البهاء» وكوَّن الفرقة البهائية، أو الدين البهائي، وزعم البهاء أنه نبي بعد النبي محمد ﷺ، وقام بنسخ الشرائع وتغيير الرسالة الخاتمة.

ومن بعد ذلك، جاء «مرزا غلام أحمد القادياني»: إمام «القاديانية» والذي قال بأن محمداً ﷺ هو خاتم النبيين، وأنا خاتم المرسلين، فهذه فِرَقٌ لا خلاف علىٰ كفرها.

ومن الفرق الضالة : التي عدها الحديث بالإشارة لا بالعبارة، فيما نعلم، والعلم عند الله وحده، فرقة «الحلولية» أصحاب الاتحاد والحلول، وهم من غلاة الصوفية، أمثال: «ابن عربي» و «الحلاج» و «ابن الفارض» و «عبد الكريم الجيلي» و «التلمساني» . . وغيرهم ممن آمنوا بأن الله يحل في الأشياء ويتحد بها، وأن كل ما ترىٰ وما لا ترىٰ هو عين الذات الإلهية، وأن العارف من يرىٰ الله في كل شيء، بل يراه عين كل شيء، كما قال ابن عربي، وأنشد يقول:

العبد رب، والرب عبد ... يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك حق ... أو قلت رب أنى يكلف

والحلاج الذي قال:

ما في الجبة إلا الله، وأنشأ يقول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا

وهناك قول آخر بوحدة الوجود، وبين «وحدة الوجود» و«الاتحاد والحلول» عموم وخصوص، ليس هذا مجال تفصيلها إنما هي الإشارات لمعرفة فرق الضلالة المذكورة في الحديث.

ومن الفرق «الفلاسفة»: الذين آمنوا بتناسخ الأرواح مع إيمانهم بوحدة الوجود.

وهؤلاء منهم الصوفية، ومنهم المتكلمون، وهؤلاء على فرق وطوائف.

فمن الصوفية من هو قريب من أهل السنة والجماعة، ولكن فيهم بدع وخرافات.

ومنهم من هو قريب من الشيعة في المبالغة في حب آل البيت وتعظيم الأولياء.

ومنهم أصحاب الاتحاد والحلول، وهؤلاء أبعد الناس عن الإسلام.

ومنهم «المقلدة» لأئمة صوفية، أو زهاد، ولكن خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا.

ومنهم من ينتمي للتصوف، وهو لا يعرف التصوف ولا يعرف الإسلام أيضًا، وهؤلاء هم المرتزقة وأصحاب الرسم، وهم غالب أهل زماننا، إن لم

يكن كلهم ممن ينتمون للتصوف، وقد دخلوا فيه رغبة في الدنيا وزهادة في الآخرة، علىٰ عكس الأئمة الأول الذين أسسوا مدرسة الزهد، وعرفوا بالمتصوفة، وقد تصوفوا زهادةً في الدنيا، ورغبة في الآخرة، فما أبعد البون بينهما.

إذ الفارق واسع، والبون شاسع، ولذلك تفصيل في بابه أيضًا.

وأما المتكلمون، فهو لقب عام يشمل الكثير من الفرق، والتي تزعمتها «المعتزلة» وحذت حذوها الأشاعرة، واشتهر بهذا اللقب كثير من العلماء والفلاسفة، فيقال: وكان من المتكلمين أي الذين أكثروا من علم الكلام، وهو مذموم عند السلف الصالح.

وهناك خلط وقع بين علم الكلام وعلم الفلسفة في المذهب الأشعري مثلاً.

وأهم ما عُرف به المتكلمون: تقديم العقل علىٰ النقل عند التعارض بينهما.

وعدم الأخذ بأحاديث الآحاد، في العقيدة، ولا مانع في الاحتجاج بها في مسائل السمعيات.

والمتواتر منها يجب تأويله، وصوفيتهم يقدمون الكشف والذوق علىٰ النص..

ومن فرق الضلالة: فرق حديثة بأسماء مختلفة، ورايات متباينة، وأحزاب متعددة، ومن ذلك «الماسونية» التي ينطوي تحت رايتها كثير من المسلمين، ويقول عن نفسه: مسلم ماسوني، ولها أسماء مختلفة باختلاف منتدياتها كالروتاري والليونز، والاتحاد والترقي، وشهود يهوه، والروتاركت، وفرسان المعبد، والقداس الأسود، والصليب الوردي، والأنرهويل، والدونمة، وبناي بريث، والتسلح الخلقي.. إلخ.

كل هذا تحت شعار «الإخاء والحرية والمساواة» بصور متعددة في عمل الخير، حتىٰ بناء المساجد، وفي ذلك من الولاء لليهود ما فيه، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] وفيه العمل لخدمة الصهيونية العالمية، بأساليب شتىٰ وبطرق ماكرة، ولم لا؟ وهم اليهود!!.

ومن ذلك: «الشيوعية» أو «الاشتراكية» فتجد المسلم الذي يدين بالولاء للشيوعية والماركسية، باسم أنه يؤمن بالإسلام عدا الاقتصاد الذي يأخذه عن «ماركس» أو يأخذ نظرية ماركسية، وهناك حزب شيوعي، أفراده مسلمون، زعماء!

ومن ذلك الذين آمنوا «بالعلمانية» نظامًا يفصل الدين عن الدولة، ويدع لك الجانب الروحي دون المادي، ويبيح لك الشعائر دون الشرائع، مع اختلاف أنظمة الدول.

والذين آمنوا «بالديمقراطية» بديلاً عن الشورىٰ الإسلامية، والشرائع الدينية والذين آمنوا «بالقومية» - الفرعونية - أو الطورانية، أو العربية!!

وهذا يدين «للماركسية»، وذاك يعمل «للرأسمالية»، وهذا يؤمن «بالمادية والجدلية»، وهذا يعتقد «بالوجودية»، وهذا ينادي «بالحداثة» وذاك «بالعولمة».

وهذا فضلاً عن المعتقدات الأخرىٰ التي تبناها مسلمون تظاهروا بالالتزام، كفكر «التكفير» الذي ظهر حديثًا، في صورة متطورة للخوارج القدامىٰ.

و «الفرماوية» الذين أنكروا السنة، وأنكروا الأخذ بالأسباب.. إلخ.

و «القرآنيون» الذين أنكروا السنة أيضًا، وأولوا القرآن الكريم، وعملوا لخدمة أعداء الإسلام.

و «المتنورون» الذين راحوا يقلبون معالم الدين، ويهاجمون الحجاب والالتزام، والصحوة الإسلامية، ويزعمون أن الإسلام ظلم المرأة، وظلم أهل الكتاب، وأنه دين قام علىٰ الإرهاب باسم الجهاد، والتخلف باسم الالتزام، وأنه يجب تطوير الدين حتىٰ يساير العصر، ويتمشىٰ مع العولمة، ويتفق مع «الحداثة» و «العصرنة».

فسبحان الله! ماذا يفعل التضليل بالناس. وهذا شأن الفرق الهدامة الضالة، التي هبطت بالإنسان إلىٰ منزلة الحيوان، وبالتأمل يظهر لنا أن جميع

هذه الفرق والمذاهب الهدامة، المدمرة في العالم، كانت من صنع اليهود الحاقدين على البشرية، الناقمين عليها، بصفة عامة وعلى الإسلام والمسلمين بصفة خاصة، فالكل طبخ في مطابخ اليهود، وقدم طعامًا مسمومًا للمسلمين ليموتوا به، ويهلكوا عليه، وليكون فيه القضاء على الإسلام من داخله، بهدم عقيدته وشرائعه، من داخل الجمعيات السرية اليهودية التي تتطور بتطور العصر، وتتزايد بتزايد الأيام، وتتخذ أشكالاً ورايات متعددة.

لعلك أدركت الآن - أيها الأخ القارئ الكريم - معنى قول النبي ﷺ: **«وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة...»**.

إنهم إذن فِرق، وليسوا جماعات، إنهم أصحاب فُرقةٍ وليس مجرد خلافات، إنهم تفرقوا على العقائد والأصول، لا على فقهيات وفروع، أو أشكال وهيئات، إنهم لم ينحصروا في زمان واحد، ولا في بلد واحد، كما لم ينحصروا في الفرق القديمة التي اجتهد العلماء في حصرها كالشهرستاني وابن حزم والبغدادي وغيرهم.

وإنما هم يُعرفون بسماتهم وصفاتهم، بحيدتهم عن الحق، وانحرافهم عن المنهج، وزيغهم عن الصراط المستقيم، وبُعدِهم عن القرآن الكريم، وضلالهم عن سنة النبي العظيم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

ومخالفتهم للفهم المستقيم، الذي كان عليه سلف الأمة الذين هداهم الله للمنهج القويم، والصراط المستقيم، مع الوسطية في الدين، بلا زيغ ولا شطط، بلا جور ولا بخس، ولا غلو ولا وكس.

وقول النبي ﷺ في الحديث: **«كلهم في النار إلا واحدة»** لا يعني أنها كلها كافرة، بل قد يكون منها من هو على قيد الإسلام، ويدخل النار في طبقة عصاة المسلمين التي هي أعلى دركات جهنم.

كما يعني أيضًا أن منهم الكفار والمنافقين الذين هم في بقية الدركات،

والمنافقون منهم في الدرك الأسفل من النار، والبقية بين ذلك، كل طائفة منهم تحشر مع الطائفة التي تنتمي إليها، وانشقت عنها، وراحت تتظاهر بالإسلام، فتخلد معها.

هذا وحكمنا بالكفر أو بالنار على هذه الفرقة إنما يكون على العموم لا على التعيين.

فلا يجوز الحكم على شخص بعينه أنه من أهل النار لجواز انتفاء ذلك عنه بالرجوع إلى حظيرة الإسلام، أو بالتوبة النصوح، أو بمصائب يبتلى بها تكفر ذنوبه وسيئاته... إلخ.

ولا يجوز الحكم عليه بالكفر إلا بعد إقامة الحجة باستيفاء الشروط وانتفاء الموانع، واستيفاء الشروط يكون بنصب الأدلة، ورد الشبهات.

وانتفاء الموانع يكون برفع الأعذار عنه مثل الجهل، والتأويل، والخطأ، والنسيان، والإكراه، والجنون، ومن كان حديث عهد بالإسلام، ومن نشأ ببادية.

فالذين ضلوا في العقيدة، مخالفين كلمة التوحيد في أحد شقيها كمن يقول بألوهية غير الله، مثل الذين ألهوا «عليًا»، و«الباب» وغيرهما أو أنكروا نوعًا من التوحيد كتوحيد الألوهية، أو الأسماء والصفات أو تأولوه على غير وجهه، والذين قالوا بنبوة بعد النبي محمد ﷺ أو معه، كالذين ادعوا نبوة «علي» وخطأ «جبريل»، أو قالوا بنبوة مسيلمة الكذاب، أو الأسود العنسي أو سجاح بنت الحارث، أو قالوا بنبوة مرزا غلام أحمد القادياني، وكل مدع للنبوة في أي عصر أو مصر، أو أنكروا بشرية النبي محمد ﷺ أو توجهوا له ولغيره بالعبادة أو خالفوا ركنًا من أركان الإيمان، أو أنكروه أو شككوا فيه، كمن أنكر الملائكة أو تأولهم على أنهم معاني روحية ترمز إلى الخير، أو أنكر الكتب السابقة، أو راح يؤمن بها على تحريفها، أو أنكر رسولاً من الرسل،

أوأنكر اليوم الآخر، أو تأوله، أو أنكر البعث بالأجسام مع الأرواح، أو أنكر القدر أو شكك فيه، أو فهمه على طريقة الجبرية، أو تردد فيه نحو الإبليسية.

أو في جانب الشريعة، أنكروا معلومًا من الدين بالضرورة، أو استهزءوا بها، أو من قال بنسخ الشريعة ومن قال بأن الشريعة شيء، والحقيقة شيء يخالف الشريعة، على نحو من قال:

وإن كنت في علم الشريعة عاصيًا فأنا في علم الحقـــــــيقة طائع

أو من زعم أنه سقطت عنه التكاليف، أو سقطت عنه الصلاة، لأنه وصل إلى اليقين، وقد قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أو لأن الصلاة نسخت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وكانت - على زعمه - هنا فعل ماض، انتهى مفعوله، والجنون فنون.

وكذلك من حرم حلالاً، أو أحل حرامًا، كمن قال بحرمة البيع، وبحل الربا، مخالفًا قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] وعلى ذلك فقس، على شاكلة الذين استباحوا الخمور والاتجار فيها للسياح !!

أو من أنكر شمولية الدين، وزعم أن الإسلام جانب روحاني، وعبادة في المسجد، ولا دخل له في شئون الحياة، فأنكر السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والتعليم . . من منظور الإسلام أو جعل ولاءه لأعداء الإسلام، وعداءه لأهل الدين . . .

فقضية الفرق الضالة، والمارقة غالبًا ما ترتبط بالعقيدة والأصول والكليات، لأن هذه الحق فيها واحد لا يتعدد، ولا يقبل المفاصلة أو الخلاف، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] فيما نسميه بالثوابت، التي هي ثابتة ثبوت الجبال الرواسي الشوامخ، فهذه لا تقبل المساومة، ولا تكون محل النزاع، فهي إما إيمان وإما كفر، إما هدى وإما ضلال، إما إسلام وإما جاهلية، وهذا يغاير كثيرًا - أو تمامًا - قضية الخلاف على الفروع، في الفقه بين المذاهب، في أمرٍ من

أمور الدين الذي يرتبط بالهيئات والأشكال، والذي يرتبط باختلاف وجهات النظر كالاختلاف الذي وقع من أصحاب النبي محمد ﷺ في بعض المسائل، مثلاً: هل رأىٰ محمد ﷺ ربه، ليلة الإسراء والمعراج أم لا؟ والخلاف في ميراث الجدة مثلاً، وفي أمر الإمارة أو الخلافة هل شرط الخليفة أن يكون قرشيًا أم لا؟ وكالخلاف بين علي ومعاوية، وكذا بين علي وأصحاب الجمل «عائشة وطلحة والزبير» - رضي الله عنهم أجمعين - في أمر قتلة عثمان.

وكخلاف التابعين في الأمور الفقهية، كخلاف الإمام مالك مع الإمام أبي حنيفة، وخلاف الشافعي مع الإمام مالك، وخلاف الإمام أحمد بن حنبل مع أستاذه الشافعي، بل خلاف الإمام أو الفقيه مع نفسه، كما نجد فقه الشافعي القديم والجديد، وفي مذهب أحمد يذكر في المسألة الواحدة عدة روايات، كما جمعها صاحب كتاب «الإنصاف في بيان أسباب الخلاف» وكما وضح هذه المسائل الإمام «ابن تيمية» رحمه الله - في كتابه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

وكخلاف من جاء بعدهم وإلىٰ يومنا هذا في وجهات النظر في طرق الإصلاح، هل التربية أولاً أم التعليم؟

وهل البداية تكون بالقمة أم بالقاعدة؟ وهل نخرج علىٰ الحاكم الظالم أم نصبر عليه؟

وهل نقبل أنصاف الحلول بدلاً من إلغائها كلها، أم لابد من قبول الإسلام كله، والشريعة بتمامها؟

هل يمكن التدرج في تطبيق الشريعة أم لا؟ هل تكون الدعوة في المسلمين المنحرفين عن المنهج أولىٰ أم نجعلها في غير المسلمين؟ هل يمكن العمل في حقل الدعوة تحت راية قانونية مسموح بها، أو نترك ذلك حتىٰ لا ننطوي تحت راية جاهلية؟ هل نعمل في الجانب السياسي لمعرفة كيف تدار البلاد، ولدرء مفسدة

قبل جلب مصلحة، أم أن هذا يكون من باب التحاكم إلى الطاغوت؟ هل يكون الجهاد مع الاستضعاف؟ هل يكون الجهاد - إذا لزم الأمر من غير إعداد؟ وإلى متى يكون هذا الإعداد؟ وكيف لو حيل بيننا وبين الإعداد، هل نقول بالعزلة؟ هل نكتفي بالتربية؟ إلى متى نرضى الدنية في الدين؟ ولكن ما هو المستطاع؟ «**إنها ستكون فتن يصير الحليم فيها حيرانا**».

فهذا وغيره وأمثاله من جنس الخلاف على الفروع، ومنه المحمود مع التجرد عن الهوى، ومنه المذموم الذي يؤدي إلى الفرقة، وينبني على الهوى.

ولكن الخلاف في الفروع أمر واقع ماله من دافع، ولذلك ينبغي أن نراعي فيه أدب الخلاف، بأن تختلف آراؤنا ولا تختلف قلوبنا، وأن تتسع صدورنا لرأي من يخالفنا في الفروع، وأن نتأسى بأئمتنا في أدب الخلاف، فمع اختلاف الشافعي مع أبي حنيفة يقول: رحم الله أبا حنيفة، الفقهاء عيالٌ على أبي حنيفة، ومع اختلاف أحمد بن حنبل مع شيخه الشافعي كان يقول: رحم الله الشافعي، كان للناس كالشمس للدنيا، والعافية للبدن.

ولما اختلف «ابن القيم» مع شيخه «أبي إسماعيل الهروي» قال له: الشيخ حبيب إلى قلوبنا، ولكن الحق أحب إلينا منه، أقف من شيخي موقف الهدهد من سليمان، يقول: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢] والهدهد هو الهدهد وسليمان هو سليمان.

إن أدب الخلاف يستدعي أن لا نتعصب لجماعتنا، وألا نقلد مشايخنا في الخطأ، وألا ينحصر الولاء في أبناء رايتنا، وألا نعتقد أننا على الحق وما سوانا على الباطل، بل نقول قولة الشافعي: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

وأن نبتعد عن الإفراط والتفريط، وأن نحذر الغلو، وأن نتعاون فيما اتفقنا عليه، وينصح بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، وأن نحرص على أن نجتمع تحت راية واحدة، وأن تكون رايتنا العليا، وشعارنا الغالي ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] وأن ننأى عن التعصب الأعمى، والتقليد، والجهل، والهوى، وأغراض النفوس، وأمراض القلوب، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، والفهم الخاطئ لهذا الدين، والجهل بطبيعة الدين، وغير ذلك من الأسباب التي أدت إلى فُرقة المسلمين.

ماذا بقي من شرح الحديث؟

قوله ﷺ: «... **إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: الجماعة**» وفي رواية قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**، أو «**ما عليه أنا وأصحابي**» ﷺ، ورضي الله عن الصحابة.

هذه هي الفرقة الناجية التي يحرص كل مسلم أن ينطوي تحت لوائها.

وهذه هي الطائفة المنصورة التي ينبغي على كل مسلم أن يتعرف عليها، ويعمل بمقتضى منهجها الصحيح.

إنها أهل السنة والجماعة، كما عرفهم النبي ﷺ: «**ما أنا عليه وأصحابي**».

على نهج النبي ﷺ ونهج الخلفاء الراشدين، والصحابة والتابعين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين، إنهم لا يشتهرون باسم، ولا يعرفون برسم، قيل للإمام مالك - رحمه الله تعالى - من هم أهل السنة؟

قال: من لا اسم لهم، فليسوا بالرافضة ولا بالجهمية، ولا بالخوارج، ولا بالمرجئة، هم على ما كان عليه النبي محمد ﷺ وأصحابه.

وقيل لابن المبارك: من هي الجماعة؟

قال: الجماعة الحقة والطائفة المنصورة من كانت على الحق ولو كنتَ وحدك.

أهل السنة والجماعة هم أهل العلم وأهل الحديث وأهل الفقه في الدين .

أهل السنة والجماعة هم وسط بين الفرق كما أن الإسلام وسط بين الملل .

فهم وسط بين فرق الغلو وفرق التفريط ، وهم في الأعمال والسلوك وسط بين المُفْرطين والمفرِّطين .

فهم - مثلاً - وسط في التوحيد بين المعتزلة والجهمية الذين أثبتوا ذاتًا بلا صفات ، وبين الحشوية والمجسمة الذين شبهوا صفات الله بصفات الحوادث .

وسط في - القدر - بين القدرية الذين جفوا ، والجبرية الذين غلوا ، والقول بالتسيير والتخيير .

وسط - في الحكم على مرتكب الكبيرة - بين الخوارج الذين كفروه ، وبين المرجئة الذين حكموا له بالإيمان الكامل .

وسط - في أصول المعرفة - بين دعاة العقل المطلق ، وبين الجامدين عند حدود النص بظاهره ، فجمعوا بين إعمال النص والعقل ، مع تقديم النص على العقل ، ويبقى العقل مدخلاً في فهم النص .

لأن العقل نعمة من الله سبحانه وتعالى ، والنص من عند الله أيضًا ، فلا يمكن أن يقع التناقض بينهما ، فلابد من الجمع بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول ، ولا معاندة بين الشرع المنقول ، والحق المعقول ، أو الجمع بين صحيح المنقول ، وصريح المعقول .

وسط - في الحكم على الصحابة - بين الرافضة الذين غلوا ، والخوارج الذين جفوا .

وسط - في مفهوم الإيمان بين الخوارج ، والمرجئة .

وسط - في قضية القرآن كلام الله - بين المعتزلة ، وبين الحشوية . . . إلخ .

إنها وسطية الاعتقاد ، ووسطية السلوك ، ووسطية الأخلاق ، ووسطية التعامل مع الآخرين والحكم عليهم ، ووسطية في الولاء والبراء ، ووسطية في أدب الخلاف .

«الجماعة» ما الجماعة؟

المؤسس لها هو رسول الله ﷺ وأصحابه هم أهلها الأولون، وقد سميت هذه الجماعة بأهل السنة لاستمساك أصحابها بسنة النبي ﷺ وسميت بالجماعة؛ لأنها جماعة المسلمين الذين اجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا في الدين، وتابعوا منهج أئمة الحق ولم يخرجوا عليه في أي أمر من أمور الدين، وهم أهل الأثر أو أهل الحديث، أو الطائفة المنصورة أو الفرقة الناجية، فتلك أهم أسمائها.

أصول أهل السنة والجماعة: هي أصول الإسلام الذي هو العقيدة بلا فرق، ولا طرق.

- ومصدر العقيدة هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإجماع السلف الصالح.
- وكل ما ورد في القرآن الكريم هو شرع للمسلمين، وكل ما صح من سنة رسول الله ﷺ وجب قبوله وإن كان آحاداً.
- والمرجع في فهم الكتاب والسنة هو النصوص التي تبينها، وفهم السلف الصالح ومن سار على نهجهم.
- أصول الدين كلها قد بينها الرسول ﷺ، فليس لأحد تحت أي ستار أو شعار أن يحدث في الدين شيئًا، زاعمًا أنه منه، أو أنه بدعة حسنة؛ لأن كل محدثة في الدين بدعة، وكل بدعة ضلالة.
- التسليم لله ولرسوله ﷺ ظاهراً وباطنًا فلا يعارض شيء من الكتاب أو السنة الصحيحة بقياس ولا ذوق ولا كشف مزعوم، ولا قول شيخ موهوم، أو إمام معصوم، ولا غير ذلك.
- وعقيدة أهل السنة والجماعة: التوحيد العملي الاعتقادي، الاعتقاد بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

- الأصل في أسماء الله وصفاته، إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من غير تكييف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه الله تعالى عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على المشبهة المجسمة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على النفاة المعطلة.

آمنوا بصفات الله، على مراد الله، وما يليق بذات الله، لا نعلم كنهها، ولا نعرف كيفيتها.

فمثلاً: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

فالإيمان بالصفات بلا تشبيه، ولا تجسيم، ولا تأويل ولا تعطيل ولا تمثيل.

وفيها القول: إثبات مع التنزيه، ونفي من غير تعطيل.

- الإيمان - بعد الإيمان بالله تعالى - بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

- الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فهو: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فقول القلب، اعتقاده وتصديقه، وقول اللسان: إقراره، وعمل القلب: تسليمه وإخلاصه وإذعانه، وحبه، وإرادته للأعمال الصالحة، وعمل الجوارح: فعل المأمورات، وترك المنهيات.

- مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، فهو في الدنيا مؤمن ناقص الإيمان، وفي الآخرة تحت مشيئة الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه.

والموحدون كلهم مصيرهم إلى الجنة، وإن عذب منهم بالنار من عذب، ولا يُخلد أحد منهم فيها قط.

- لا يجوز القطع لمعين من أهل القبلة بالجنة أو النار إلا من ثبت النص في حقه.

ومن معتقدات أهل السنة والجماعة:

القرآن كلام الله غير مخلوق، وأما فعل الإنسان بالقرآن فهو مخلوق، فإن يقرأ الإنسان القرآن بصوته، فالصوت مخلوق، وإن يكتبه الإنسان بالقلم، فالكتابة مخلوقة وحادثة، أما القرآن ذاته فهو كلام الله تعالىٰ غير مخلوق.

الصحابة الكرام عدول، وهم أفضل هذه الأمة، والشهادة لهم بالإيمان، والفضل أصل قطعي معلوم من الدين بالضرورة، ومحبتهم دين وإيمان، وبغضهم كفر ونفاق، مع الكفِّ عما شجر بينهم وترك الخوض فيه بما يقدح في قَدْرِهم.

وأفضلهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، وهم الخلفاء الراشدون، وثبتت خلافة كل منهم حسب ترتيبهم.

ومن الدين محبة آل بيت رسول الله ﷺ وتولِّيهم، وتعظيم قَدْرِ أزواجه أمهات المؤمنين، ومعرفة فضلهن، ومحبة أئمة السلف، وعلماء السنة والتابعين لهم بإحسان، ومجانبة أهل البدع والأهواء.

- الحرص علىٰ جمع المسلمين علىٰ الحق وتوحيد صفوفهم علىٰ التوحيد والاتباع، وإبعاد كل أسباب النزاع والخلاف بينهم.

ومن هنا لا يتميزون عن الأئمة في أصول الدين باسمٍ سوىٰ السنة والجماعة، ولا يوالون ولا يعادون، علىٰ رابطةٍ سوىٰ الإسلام والسنة.

- يقومون بالواجب تجاه أهل البدع ببيان حالهم، والتحذير منهم، وإظهار السنة وتعريف المسلمين بها وقمع البدع بما يوجبه الشرع من ضوابط.

الله خالق لكل شيء، والعبد فاعل ومريد ومختار، وأن فعله حقيقة لا مجازًا.

والإيمان بكل نصوص القدر ومراتبه: (العلم - الكتابة - المشيئة - الخلق) وأنه -

تعالى - لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

وهداية العباد وإضلالهم بيد الله ، فمنهم من هداه الله فضلاً ، ومنهم من حقت عليه الضلالة عدلاً .

وإثبات الحكمة في أفعال الله تعالى ، وإثبات الأسباب بمشيئة الله تعالى .

فالله تعالى لما قدَّر ما للعبد وما عليه من خير أو شر ، أو سعادة أو شقاء ، قد قدَّره مربوطًا بأسبابه ، فللخير أسبابه ، وللشر أسبابه ، كما قدَّر أن العبد يأتي تلك الأسباب ويعمل بها بمحض إرادته التي قدرها له ، وحرية اختياره الذي قضى له به .

هذا ولأهل السنة والجماعة المنهج المتكامل في كل قضايا الدين بوسطية وجمال وكمال ، فكل من التزم بمنهجهم فهو من الجماعة ، وإن أخطأ في بعض الجزئيات .

وكل من يعتقد بأصول أهل السنة والجماعة ويعمل على هديها فهو من أهل السنة ولو وقع في بعض الأخطاء التي يُبدَّع من خالف فيها .

وهذا مع الدعوة للوحدة والاعتصام ، فلا يجوز التفرق في الدين ، ولا الفتنة بين المسلمين ، ويجب رد ما اختلف فيه المسلمون إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه السلف الصالح[1] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

---

(١) راجع بتوسع : أصول الفرق الإسلامية ، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة .



المبحث التاسع

حديث: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة..»

أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: سمعت الصادق المصدوق ﷺ يقول: «**إن أحدكم ليجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يؤمر الملك فينفخ فيه الروح، ثم يؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إله إلا هو، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[1] أو كما قال ﷺ.

هذا الحديث الصحيح - المتفق عليه - فهمه كثير من الناس فهمًا خاطئًا، وهذا الفهم الخاطئ فيه نسبة الظلم إلىٰ الله تعالىٰ - سبحانه وتعالىٰ عما يقولون علوًا كبيرًا - ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وفيه ما يتفق مع الهوىٰ، ويدعو إلىٰ التمرد، ويورث الجرأة علىٰ الله تعالىٰ.

والفهم المقلوب للحديث بعض بقايا الفكر الجبري في عقيدة القضاء والقدر.

فمع دعوة هذا الشخص الذي فهم الحديث مقلوبًا، إذا أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر، وكففته عن المعصية، يقول لك: السعيد سعيد وهو في بطن أمه، والشقي شقي وهو في بطن أمه!!

وما دام الأمر كذلك، ففيم العمل، ولماذا لا أتمتع بحياتي الدنيا، وأفعل ما

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (بدء الخلق/ ٣٢٠٨/ فتح)، مسلم في (القدر/ ٢٦٤٣/ عبد الباقي).

أشاء خاصة وأن الإنسان منا ساعة أن يموت يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وبذلك يكون قد حظي بسعادتي الدنيا والآخرة!!

والآخر من الناس يقول: ها أنذا أعبد الله تعالى وأحرم نفسي من الملذات والشهوات، ولكن كيف إذا سبق عليَّ الكتاب عند موتي فأعمل بعمل أهل النار - بحكم الأقدار - فتكون تلك الخاتمة، فلا تمتعت في الدنيا، ولا حصلت على السعادة في الآخرة!!

فكيف ذلك؟!

وسبحان الله، لمثل هذه المفاهيم المقلوبة، والوساوس الشيطانية، التي ترك الإنسان نفسه لها حتى تنقلب الأمور عنده رأسًا على عقب، ويضل في فهم القدر، وينسب الظلم إلى ربه سبحانه، ولا يربط الأمور بأسبابها ومسبباتها، وكأننا نعيش بغير أحكام منسجمة، وقوانين منتظمة، وشرائع عادلة.

إن الناس إذا رأوا مديرًا لعمل يكافئ المهمل، ويجازي المنضبط في عمله، المنتظم الملتزم، لأعلنوا أن هذا ظلم، لا يرضاه الله ولا يرضاه العباد، ولو تكاتفوا لامتنعوا جميعًا عن العمل تضامنًا مع صديقهم الذي وقع عليه هذا الظلم، واعتراضًا على المحاباة والمجاملة التي وقعت لذاك المهمل المقصر.

فإذا كان ذلك كذلك، فكيف يمكن فهم الحديث بمثل هذا المعنى السقيم، أو الفهم المقلوب؟ وهل قول الله تعالى - في الحديث: **«خلقت هؤلاء للجنة ولا أبالي، وخلقت هؤلاء للنار ولا أبالي»**[1] يمكن أن يكون من هذا الباب؟!

كيف وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ٤٩]؟

كيف وقد قال الله - في الحديث القدسي: **«إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا»**[2]؟!!

---

(١) **صحيح**: انظره في «صحيح الجامع» (١٧٥٨ - ١٧٨٤ - ٣٢٣٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في (البر والصلة/ ٢٥٧٧/ عبد الباقي).

كيف وقد ربط الله سبحانه الأشياء بأسبابها ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤-٨٥]؟!!

كيف وحكم الله تعالى مبني على العلم المطلق، والعدل المطلق، والمساواة بين الخلق؟!!

كيف والظلم محال على الله، والجهل مستحيل على الله، والمحاباة والمجاملة كذلك؟!

وإذا كان الأمر كذلك ففيم العمل؟ فالناس إذن يتركون صالح العمل، ويلهيهم سوء الأمل، ويعيشون بلا ضابط ولا رابط، ولا أحكام ولا التزام!!

فلماذا كانت الشرائع إذن؟ ولماذا أرسل الله الرسل إذن؟ ولماذا؟ ولماذا؟ وبأي المقاييس يدخل أناس الجنة؟ وآخرون النار؟

هل هي الأقدار فقط؟ إن كان الأمر كذلك، فما حق للدنيا أن تكون، ولا للخلق أن يخلق، ولا للشرائع أن تشرع، فسبحان الله، كيف وهب الله تعالى للإنسان عقلاً ثم هو يفكر مثل هذا التفكير؟ ولا يستغله في معرفة البديهيات، والوقوف على المسلمات؟!

ولكن هذه الشبهة من أولى الشبهات التي طرح بها شياطين الجن والإنس على أذهان بعض من تظاهروا بالإسلام، وكان لهم أساتذة من اليهود والنصارى، فبدأ السؤال عن القدر، والتشكيك فيه، عن طريق «الجعد بن درهم» الذي تلقى القول بالجبر، وأن الإنسان يجبر على فعله، ليس له حرية ولا إرادة ولا اختيار، عن يهودي من يهود الشام يدعى «طالوت بن أعصم».

فاعتنق هذا المذهب، ونشره بين الناس، وقد سمعه عنه «الجهم بن صفوان» فصار من أكبر دعاته وكانت هذه بداية مذهب الجبر الذي عرف بفرقة «الجبرية».

وهو قول قديم قاله اليهود والنصارى كذلك، وقال به المشركون أيضًا على عهد رسول الله ﷺ - فيما حكاه القرآن الكريم ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ

شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فالمشركون يشركون بالله سبحانه ويحلون ويحرمون كما يشتهون، ثم يحتجون بالقدر، زاعمين أنهم مجبورون على ما يفعلون من إثم وشرك، وأن ما يفعلون إنما هو مشيئة الله تعالى فيهم.

إذن هذا الفهم المقلوب عمومًا للحديث مبني على فكرة الجبر التي لا تزال آثارها باقية في المسلمين، يبررون بها أخطاءهم وتقصيرهم، ويقولون: قضاء وقدر!!

ويعبرون عن ذلك بمثل: المكتوب على الجبين، لابد أن تراه العين!!

وإذا دعوتهم للالتزام قالوا: حتى يريد الله تعالى الهداية لنا، وما أشبه ذلك!!

هذا، ومثل هذه الشبهة لما عرضت للصحابة - رضي الله عنهم - رد عليها النبي ﷺ إذ سئل عما نعمله أشيء مستقبل أم شيء قد قضي وفرغ منه؟ قال: «**إنه قد قضى وفرغ منه**» وقال أيضًا حين سئل: أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب الأول؟ فقال ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ٥-١١].

كما قال ﷺ: «**إن أول ما خلق الله القلم، قال له اكتب، قال رب ماذا أكتب؟ قال اكتب ما هو كائن، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**».

ولكن هذه الكتابة مبنية على علم الله تعالى الشامل لكل شيء، والذي هو علم انكشاف لا إجبار، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

ولذلك فقضاء الله تعالى وقدره مبني أولاً على العلم، وبعد العلم كانت

الكتابة، ثم المشيئة والإيجاد أو الخلق، وتلك مراتب القدر - كما هي عند أهل السنة والجماعة.

فالفهم الخاطئ للحديث فيه نسبة الظلم إلى الله تعالى - كما أشرنا - وعلى المسلم أن ينجو بنفسه من أن يفهم هذا الفهم الذي يرديه ويشقيه، ويضله، والذي يورثه - عياذًا بك اللهم - إن تعمده - الكفر بالله.

ولكن الذي يبدو ليس كذلك، وإنما هي عقول كلت عن فهم القضاء والقدر.

ولم لا؟ والإنسان إذا نظر إلى مسائل القدر نظر إليها بمنظاره هو، وبعلمه هو، وبقدراته هو، ومن ثم يضل، ولو نسب الأمر إلى علم الله وقدرته، لعلم أن القضاء والقدر مرتبط بعلم الله الشامل المحيط، وبقدرته التي ليس لها حدود، وذلك في ظل عدل الله تعالى مع رحمته، فيما لا قبل للبشر بفهمه أو الإحاطة بعلمه، أو معرفة كنهه وأسراره، وذلك لقلة علمهم ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥] فالله تعالى علم ما كان، وما يكون، وما هو كائن، وما لم يكن - لو كان - كيف يكون.

سبحانه ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام: ٥٩].

وحسب علمه - سبحانه - سطر، وشاء، وقضى ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩] ﴿**وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ**﴾ [القمر: ٥٣] ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحديد: ٢٢].

فإذا نظرنا في الحديث نجد قوله ﷺ: «**إن أحدكم ليجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك..**» وهذا حكاه القرآن الكريم، وفيه إعجاز علمي، أقر به الطب الحديث، وكما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وهذه القضية ليست هي المرادة من تصحيح الحديث في فهمه المقلوب، ولكن يأتي بعدها الكلام الذي نحن بصدد الوقوف عليه، وهو قوله ﷺ: «**ثم يؤمر الملك فينفخ فيه الروح، ثم يؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد..**».

هذه الأمور الأربعة، إذ كتبت والإنسان في بطن أمه، هل كتبت بناء على علم أم على جهل؟! وهل كتبت بناء على عدل أم على ظلم؟! وهل كتبت بالحق أم بالهوى؟!

وهل هذه الأشياء مرتبطة بأسبابها أم بغير أسباب؟!

وهل إذا سُئل الإنسان يوم القيامة يسئل عما كُتب عليه، أم على ما فعلت يداه؟!

وهل ما فعلته يداه كان بحرية واختيار، أم بإرغام وإجبار؟!

وهلا سأل الإنسان نفسه، وقد كتب رزقه، أيأتيه بغير أسباب؟!

فتمطر السماء عليه ذهبًا وفضة، مع أنه مضمون ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]!!

وهلا سولت له نفسه أن يلقي بنفسه أمام سيارة أو قطار، أو من على منزل أو جبل، فإنه لا يموت، ما دام الأجل واحدًا، وأنه ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٩]!!! أم أنه يأخذ بأسباب النجاة؟

وإذا كان الأمر كذلك، وأنه لا يعقل أن الرزق يأتي بغير أسباب، والأجل

لابد من المحافظة عليه والأخذ بأسباب النجاة، فلم لا يكون العمل كذلك، فهذا عمل يؤدي به إلىٰ الجنة، وذاك عمل يودي به إلىٰ النار، وهذا العمل يورث السعادة، وذاك يورث الشقاوة؟

ولن يحاسب الإنسان علىٰ عمله هذا إلا إذا كان عاقلا غير مجنون، فإن طرأ عليه جنون، فهو معفو عنه حتىٰ يفيق، وإلا إذا كان مختاراً، فإن أجبر أو أكره فمرفوع عنه القلم حتىٰ تعود إليه حريته واختياره، ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ [النحل: ١٠٦] كما أنه غير محاسب إلا إذا بلغته دعوة نبي، أو رسالة رسول ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ [الإسراء: ١٥] ومعفو عنه أيضًا في حالة الخطأ والنسيان ﴿ **وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾الآية [البقرة: ٢٨٦] قال الله: «**قد فعلت**»[1] ومعفو عنه أيضًا إن كان جاهلاً ﴿ **حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٦] لأنه ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١١٥].

وكذا إن كان متأولاً، فالخطأ في التأويل من الأعذار المقبولة عند أهل السنة والجماعة كما حدث من «حاطب بن أبي بلتعة - رضي الله عنه - إذ تأول كشف سر النبي ﷺ لدىٰ المشركين ليكون له يد عندهم، وقد قبل النبي ﷺ عذره، إذ صدقه، وكف عنه، فضلاً عما له من سابقة وهو أنه «بدري» شهد بدراً»[2].

كما تأول «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه الحكم عليه بالنفاق: وقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الجهاد/ ٣٠٠٧/ فتح)، مسلم في (فضائل الصحابة/ ٢٤٩٤/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود في (السنة/ ٤٧٠٠)، الترمذي في (القدر/ ٢١٥٥)، وفي (التفسير/ ٣٣١٩) وهو في «صحيح الجامع» (٢٠١٧).

أفيكون مع هذه الأعذار التي شرعها الله تعالىٰ، حيث لا عقوبة معها، يجبرك الله علىٰ الضلال، ويكرهك علىٰ الكفر ثم يحاسبك علىٰ ذلك، ويعاقبك عليه؟!!

فما أعجب هذا - لمن كان عنده مسحة عقل، ولم يكن الشيطان قد ضحك عليه وركب رأسه!! هذا... والكتابة التي تكتب والإنسان في بطن أمه، ليست هي الكتابة الأولىٰ، كما أنها ليست الأخيرة، فأما الأولىٰ تلك التي خطها القلم قبل خلق الخلائق، كما في الحديث «**إن أول ما خلق الله القلم، قال له اكتب، قال رب ماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1].

وهذه الكتابة المبنية علىٰ علم الله تعالىٰ الشمولي الانكشافي، والتي لا يترتب عليها حساب ولا عقاب، ولكنها قدرة الله وقدره، مع علمه وإحاطته، جل شأنه، وأما الكتابة الأخيرة، فتلك التي يكتبها الملكان من الكتبة علىٰ الإنسان عندما يجري عليه القلم عند البلوغ، ومع نضج عقله، وفي حالة عدم غيبوبته بنوم ونحوه كما قال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق**».

ودليل تلك الكتابة قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق: ١٨] أي ملكان كلاهما رقيب يرقبه وعتيد: حاضر عنده لا يغيب، أحدهما يكتب الحسنات علىٰ يمين الرجل وهو

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في (الحدود/ ٤٣٩٨-٤٣٩٩-٤٤٠٢-٤٤٠٣) الترمذي في (الحدود/ ١٤٢٣)، النسائي في (الطلاق/ ٣٤٣٢/ أبو غدة) ابن ماجه في (الطلاق/ ٢٠٤١) من حديث علي ابن أبي طالب وأيضًا عن عائشة رضي الله عنها وهو في «صحيح الجامع» (٣٥١٢: ٣٥١٤).

أمير على الآخر (ملك السيئات) الذي هو على يسار الرجل.

فإذا فعل العبد الحسنة، بادر ملك الحسنات بكتابتها عشرًا، وإذا فعل العبد سيئة، قال ملك الحسنات لملك السيئات: دعه لا تكتبها، لعله يستعتب، فإن تاب أو استغفر لا تُكتب، وإن لم يستغفر بعد سبع ساعات، قال: اكتبها، أراحنا اللّه منه».

فهذا الذي فعله الإنسان بكامل اختياره وحريته وإرادته هو محل السؤال والثواب والعقاب، فكيف يفهم الإنسان أنه بغير أسباب، السعيد سعيد في بطن أمه، والشقي شقي في بطن أمه!! فيكون كلمة حق أريد بها باطل.

ثم قوله ﷺ في الحديث: «**فوالذي نفسي بيده، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب...**» الحديث ما المراد بذلك؟ هل على نحو الفهم الخاطئ، والمعنى المقلوب الذي ذهب إليه كثيرون ممن ضلوا في الفهم، على نحو ما أشرت إليه عند ذكر الشبهة من قبل، أم ماذا؟

وكما علم مسبقًا أن الأمور ارتبطت بأسبابها، مع اختيار الإنسان لا إجباره، أو إكراهه أو إرغامه، وما كان فيه معنى الإكراه، فهو ليس محل المساءلة، كما أنه ليس من الدين، كما قال رب العالمين: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولو أكره اللّه تعالى الناس على شيء لأكرههم على الإيمان، لأنه محل رضاه، بخلاف الكفر الذي لا يرتضيه، ولذا قال: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ [الزمر: ٧]، كما قال: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾ [الحجرات: ٧].

ولذلك قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس: ٩٩]، أي: ولو شاء إجبارهم على

شيء، لأجبرهم على الإيمان حتى لا يشذ منهم أحد، بل لآمنوا كلهم جميعًا، بتلك المؤكدات، ولكانوا - في ذلك - كعالم الملائكة، ولكن ليس هذا قانون الله مع البشر الذين خيرهم وكلفهم، ومنحهم العقول، وأرسل إليهم الرسل، وحملهم الأمانة، وكان هذا هو محل التخيير، ومناط التكليف الذي يكون عليه الجزاء.

فخاتمة الإنسان مرتبطة بالأسباب، فمن أخذ بأسباب السعادة ختم له بها، ومن أخذ بأسباب الشقاوة ختم له بها - نعوذ بالله تعالى.

فالإيمان والطاعة من أسباب السعادة، والكفر والمعصية من أسباب الشقاوة، وكلاهما ميسر للإنسان، والقضاء لا يتنافى مع الأسباب - كما هو معلوم.

والقضاء والقدر يحتج به في المصائب، لا في الذنوب والمعايب.

وهل يحق للإنسان إن فعل خيرًا يقول أنا فعلت، وفعلت؟ فإذا عمل شرًّا يقول: قضى الله علي، وقدر الله لي؟ فيكون عند الخير قدريًّا، وعند الشر جبريًّا!! ينسب الخير لنفسه، والشر إلى ربه، فما أشقاه من عبد، وما أقل أدبه مع الله ﴿ **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ** ﴾ [النحل: ٦٢].

وخاتمة الإنسان إذ هي مرتبطة بالأسباب وبالأعمال، فهي لابد وأن تكون متوجة بالإخلاص، مع حسن اليقين، وعظم الرجاء في الله تعالى، وحسن الظن به - سبحانه وتعالى، وبهذا نستطيع أن نفهم قوله ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل...**»

في ظل بقية النصوص، والروايات، وها هي بشيء من التوضيح.

أولاً: هناك رواية مفسرة لهذه الرواية، وهي قوله ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل**

بعمل أهل الجنة ـ فيما يبدو للناس... وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس...» [1] فبهذا يتضح لنا معنى كان خافيًا علينا، ألا وهو أن الحديث يحدثك عن صنف من الناس ظاهره غير باطنه، الأول ظاهره الصلاح، وباطنه السوء، ظاهره الخير، وباطنه الشر، ظاهره يعمل بأعمال أهل الجنة، وفي الخفاء يعمل بعمل أهل النار، فلا يعرف الناس عنه إلا ما يرون، ولكن إذا انكشف الغطاء ورفع الحجاب ظهرت الحقائق، وكشف المستور، وتتضح السرائر، فهذا الصنف فيما يراه الناس أنه يصلي ويصوم ويزكي ويحج، ثم هو يقوم الليل أو يكثر من صيام النافلة، وكذا يتصدق، ويتابع بين الحج والعمرة، وربما كان يدعو أو يجاهد.. لكنه إذا خلا بنفسه ارتكب محارم الله.

فهو إن كان في وظيفة أو عمل واستطاع أن يسرق أو يختلس أو يرتشي بعيدًا عن رقابة البشر، فعل، ولا بأس بأن يخرج صدقة مما أخذه من مال حرام، فيرىٰ الناس صدقته، ولا يرون سرقته!! وهو إن كان تاجرًا راح يغش، ويطفف، وينقص المكيال والميزان، ويبخس الناس أشياءهم، ولكن لا ترىٰ منه إلا أنه عند الصلاة يغلق المحل، وفي موسم الحج هو يحج، ويعطيك معسول الكلام عند التعامل معه، وهو الذي يقصم ظهرك بصورة أخرىٰ في السلعة أو السعر أو غير ذلك.

وهذا الذي يراه الناس صالحًا، يصلي في الصف الأول ويعمل الأعمال الصالحة، لكنه منافق يظهر خلاف ما يبطن، وتراه مريضًا بأمراض القلب من كبر أو غرور، أو حسد وحقد، وخلاف ذلك يذكرنا الله تعالىٰ بهذا الصنف ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الجهاد/ ٢٨٩٨/ فتح)، مسلم في (الإيمان/ ١١٢/ عبد الباقي) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

وذاك الذي يقدم - في الظاهر - النصيحة، وهو يريد الفتنة، وتكون مليئة بالغيبة والنميمة!! أوهذا الذي لا يعرف الناس خباياه، أو كيف هو في بيته، ولكنه - عياذًا بك اللهم - إذا رأى امرأة فجر بها، فهو - في السر - يزني، ويشرب الخمر، ويقع في اللواط أو الشذوذ وغير هذا مما لا يعرفه الناس عنه، وإنما عرفوا عنه كل خير في الظاهر فقط، ولكن الذي يعلم الظاهر والسرائر، ويعلم السر وأخفى، إنما هو الله، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وهذا الصنف الأول هو في الناس كثير، وأمثلته كثيرة أيضًا، هذا بعضها.

وأما الصنف الثاني المشار إليه في الحديث «**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار - فيما يبدو للناس...**» فهذا وإن كانت أمثلته قليلة، لأن الناس لا يحبون أن يظهروا شرورهم أو أعمالهم السيئة، إلا من نزع الحياء، وتجرد من الأخلاق، فإنه يجاهر بمعاصيه، ويعلن بمنكراته، ويفتخر بذلك أيضًا، فهذا الصنف قد يعمل عملاً صغيراً يُسر به كأن يطعم يتيمًا ابتغاء وجه الله، أو يعطي سائلاً، أو يستر على امرأة، أو يدافع عنها إذا أراد مجرمون اغتصابها، أو عفى عمن ظلمه، أو تسامح عن دين لمعسر، فإن عفو الله أعظم، وعطاءه أكبر، وتجاوزه لا يقارن، وفضله مذهل، فبسبب شيء من هذا هو يعفو عنه، ويغفر له، ويمنحه من الحسنات ما يفوق سيئاته، فيحسن له خاتمته، ويختم له بخير، لا سيما إذا صاحب هذا حسن الرجاء في الله، مع اليقين برحمة الله، والطمع في فضله سبحانه وتعالى.

ثانيًا: أعمال الإنسان مرتبطة بالإخلاص فيها، وليست بأشكالها وإتقانها، فكم من أعمال هي من أجل الأعمال على الإطلاق، فهل ترى أفضل من الشهادة في سبيل الله تعالى؟ أو أفضل ممن تعلم العلم وعلمه، وتعلم القرآن وأتقنه؟

أو من راح ينفق ماله في سبيل الله؟

إنها والله لمن أجل الأعمال، نعم، ولكن مع الإخلاص لله عز وجل فيها، نسأل الله ذلك، فإذا عملها الإنسان ولم يخلص لله فيها، تكون وبالاً عليه، وسببًا في دخوله النار، لا بل يكون أول من تُسعرُ بهم النار، والعياذ بالله تعالى.

مع أن الناس ما عرفوا عن صاحب هذه الأعمال إلا ما عمل من خير، ولكن من الذي يطلع على القلوب؟ إنه علام الغيوب، فعلم عدم إخلاص العبد في أعماله الصالحة، فكان ذلك سببًا في سوء خاتمته عند موته، وسببًا في دخوله النار أول الداخلين.

كما قال ﷺ: «**أول من تسعر بهم النار ثلاثة: رجل استشهد في سبيل الله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: يا رب قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: فلان جرىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: يا رب تعلمت العلم، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: يا رب ما وجدت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: فلان جواد أو كريم، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (الإمارة/ ١٩٠٥/ عبد الباقي).

فهذه أصناف من الناس عملت بعمل أهل الجنة طوال حياتهم، لكنها لما خلت من الإخلاص لله كان الجزاء من جنس العمل، فبقيت للناس، كما أراد هو بها الناس، ولم يرد بها وجه رب الناس فعند موته سبق عليه الكتاب، وحكم رب الأرباب، الذي قال فيه، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال في الحديث القدسي: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك»**[1].

ومن هنا، تأخذ الأمور مجراها الصحيح، فينطق الإنسان عند موته بكلمة تنم عما في داخله، أو يعمل عملاً يظهر مكنونه، فهذا المراد بأنه يعمل عمل أهل النار، أي بكلمة أو عمل أو اعتقاد فتسوء خاتمته، ـ عياذًا بك اللهم ـ، هذا وكم حدث هذا، وحدَّث الناس بهذا، كمن أُعطي القرآن عند مرض موته، إذ اشتد به ليقرأ منه، أو يسمع، أو يُرقىٰ به، فأمسك المصحف ليعلن أمام الحاضرين، أنه كافر بذلك الكتاب، نعوذ بالله تعالىٰ.

وهذه أمثلة ووقائع لأصناف من الناس، حسبما ذكرهم الحديث:

«إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها».

رجل من أصحاب النبي ﷺ كان يجاهد معه، وقد أثخن القتل في المشركين، حتىٰ تعجب الصحابة من شجاعته، وقالوا: هنيئًا له الجنة، فقال ﷺ: في لمحة من لمحات الغيب التي أطلعه الله عليها ـ **«هو في النار»**، أو **«هو من أهل النار»**، فتبعه أحد الصحابة حتىٰ يرىٰ حاله، فرآه وهو يحصد المشركين حصداً، فلما رأوا منه هذا تكاثروا عليه فجرحوه، ثم تركوه، فلم يحتمل

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (الزهد/ ٢٩٨٥/ عبد الباقي).

جرحه، فنصب رمحه على الأرض، ثم مال عليه بصدره حتى خرج من ظهره، فخر ميتًا، فقال الصحابي: صدق رسول الله[١]، فهذا الرجل الذي قتل نفسه، لأنه لم يحتمل جرحه، كم كان بينه وبين الشهادة؟ أليست هي لحظات؟!

ولكن فعل ما فعل لعدم إخلاصه في جهاده، ولما اقترفت يداه في سابق حياته.

وصدق الله إذ يقول في هذا المعنى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وهذه **«امرأة دخلت النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض»**[٢].

وهذا رجل ظل طوال حياته يعمل أعمالاً صالحة، ثم غير وجهته، وأراد أن يعمل أعمالاً سيئة، وإذ هو توجه قاصدًا ذلك خر ميتًا قبل أن يعمل فختم له بسوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك، وهذا رجل عمل صالحًا فاغتر بعمله، وظن أنه ليس هناك ما هو أفضل من ذلك، فحبط عمله.

وهذا، وذاك، وهؤلاء... أمثلة كثيرة في هذا الباب.

أما الوقائع التي حدثت في كل عصر ومصر فهي أكثر من أن تذكر أو تحصى، أو يقال بعضها.

وهناك عابد بني إسرائيل الذي فتن بالمرأة فزنى بها فحملت منه ثم قتل وليدها، ثم قتلها ـ كل هذا بوسوسة من الشيطان، فلما علم أمره وفُضح سره، وُحكم عليه بالصلب، جاءه الشيطان، وقال له: أنا صاحبك الذي

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الجهاد/ ٢٨٩٨/ فتح)، مسلم في (الإيمان/ ١١٢/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (المساقاة/ ٢٣٦٥/ فتح)، مسلم في (السلام/ ٢٢٤٢/ عبد الباقي).

أغريتك بالفتاة حتى فعلت ما فعلت، وأنا اليوم أستطيع أن أنجيك من القتل إذا سجدت لي، فسجد له فكفر، ثم مات، نعوذ بالله تعالى.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

وهذا الذي يتألى على الله فيقول: لا يغفر الله لفلان، ولا يغفر الله لفلان، فيقول الله: «**من هذا الذي يتألى عليّ: سأغفر له، وسأعذبك بالنار**»(١).

أو هذا الذي يستعظم ذنوبه على مغفرة الله تعالى، فلا يتوب ولا يغفر الله له.

وأما الصنف الثاني: «**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**».

فهذا الصنف مما لا يستطيع أن يحصيه العاد، ولا أن يقف عليه إنسان.

وذلك لكثرة إسلام من أسلم من بعد حياة مليئة بالكفر، فلما أسلم لم يمهله الأجل أن يعمل صالحًا، ولكن فقط تلفظ بالشهادتين ثم مات، فانطبق عليه الحديث ومثاله «الغلام اليهودي» الذي كان يخدم النبي ﷺ وكان يهوديًا فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له«**أسلم**» فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم ثم خرجت روحه، فخرج ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**»(٢).

وكم من رجل أسلم ثم مات، بدءًا من أيام الصحابة، وإلى يوم الناس هذا.

وكذا نقول: وكم من رجل - وكذا امرأة - قد أسرفوا على أنفسهم في

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (البر والصلة/ ٢٦٢١/ عبد الباقي). ولفظه: «من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت له وأحبطت عملك».

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الجنائز/ ١٣٥٦/ فتح).

الذنوب والمعاصي، حتى ارتكبوا الموبقات، وفعلوا الكبائر - هكذا على الجملة، دون تفصيل - ثم تداركتهم رحمة الله، فتابوا وحسنت توبتهم، ثم بادرهم الأجل، ووافتهم منيتهم، فختم لهم بخير، وتاب الله عليهم، وكفر عنهم سيئاتهم، بل بدل سيئاتهم حسنات، كما قال رب الأرض والسموات:

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وما حديث «القاتل مائة نفس»[١] عنا ببعيد، فهذا رجل لم يعمل خيراً قط، ولكنه تاب ثم مات قبل أن يعمل خيراً أيضًا، ولكن كل ما عمله أنه أراد توبة نصوحًا، راح يأخذ بأسبابها عند قوم صالحين فمات، والحديث معلوم، وهذا لا شك مما ينطبق عليه، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها.

أو عابد بني إسرائيل الذي ظل يعربد طوال حياته، وأخوه في طاعة وصلاح، ثم قال: يكفيني ما فعلت وأذهب إلى أخي فأتعبد معه، فلما التقيا خرا ميتين، فبعثا على نيتهما.

وهذا رجل من بني إسرائيل لقي غصنًا من الشوك فنحاه عن الطريق، فغفر الله له»[٢].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء/ ٣٤٧٠/ فتح)، مسلم في (التوبة/ ٢٧٦٦/ عبد الباقي).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (البر والصلة/ ١٩١٤/ عبد الباقي).

وتلك بغي من بني إسرائيل سقت كلبًا كان يلهث من شدة العطش، فشكر الله لها فغفر لها، وأدخلها الجنة[١].

وفي الحديث «**يا بن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا بن آدم: لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة يا بن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني إلا غفرت لك ما كان منك ولا أبالي**»[٢].

ثالثًا: مما يستفاد من الحديث:

أنه يقال للطائع إياك أن تغتر بطاعتك، فإنك لا تدري كيف تكون خاتمتك.

ويقال للعاصي احذر أن تيأس من رحمة ربك، فإن فضله واسع، وبتوبة نصوح تحسن خاتمتك فالحديث تحذير من اليأس من رحمة الله، وكذلك تخويف من الأمن من مكر الله؛ لأن الأمن والإياس يخرجان من ملة الإسلام، والعياذ بالله تعالى.

وقد قال تعالى: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ**﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

كما قال سبحانه: ﴿**وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف: ٨٧].

كما قال عز من قائل: ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾ [الحجر: ٥٦].

فكثير من الناس يذكرون جانب المغفرة والرحمة فقط فيقعون في الأمن من مكر الله، وهم يقولون إنهم يحسنون الظن بالله - وكذبوا - ولو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (بدء الخلق/ ٣٣٢١/ فتح).

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي في (الدعوات/ ٣٥٤٠) وهو في «صحيح الجامع» (٤٣٣٨).

وكثير منهم يذكرون جانب العقوبة والعذاب، فييأسون من روح الله، ويقنطون من رحمة الله، أو يستعظمون ذنوبهم، ولا يرون أن الله يغفر لهم، فهؤلاء يقال لهم الحديث على سبيل عدم اليأس والقنوط، كما لا يجوز أبدًا أن يفهم إنسان أن الحديث يعطيه تصريحًا في أن يفعل ما يشاء، ثم هو بسبق الكتاب عليه سيغفر له، كما لا يجوز أن يعتقد أن القضاء والقدر تكأة يتكيء عليها، أو حائط يرتكن عليها، أو مبررٌ يبرر به أخطاءه، فهذا لم يرده رسول الله ﷺ في حديثه، ولا رضيه الله تعالى في قرآنه، ولا نجده في شرع، ولا يقره عقل.

فعلى المسلم أن يتعقل الأمور، وها أنذا عرضتها بصيغة المسلمات التي لا تقبل الخلاف، والبديهيات التي لا تحتمل النقاش، وكفى هذا القدر ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: ٣٧]. ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: ٨٨].

* * *



المبحث العاشر

حديث: « احتج آدم وموسى...»

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبو البشر الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته: فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة»؟**

فقال له آدم: **«أنت موسى الذي كلمك الله تكليمًا، وكتب لك التوراة، فكم تجد فيها مكتوبًا «وعصى آدم ربه فغوى» قبل أن أخلق؟قال: بأربعين سنة، قال: فحج آدم موسى»**[1].

والحديث قد روي بطرق أخرى.

هذا الحديث الصحيح - المتفق عليه - فهمه الناس فهمًا مقلوبًا، إذ زعموا أنه يدل على أن القدر يمكن الاحتجاج به في الذنوب والمعاصي، كما فهموا ذلك من الحديث، ومن غلبة آدم لموسى في الحجة!!

وليس الأمر كما ذهبوا إليه: لأنه معلوم - لدى أهل السنة والجماعة - أن القدر يحتج به في المصائب، لا في الذنوب والمعائب.

وهذا الحديث، الذي نحن بصدده - كالتتمة للحديث السابق المرتبط بالقدر.

وقد سبق بيان أن القدر مبني على علم الله تعالى الشمولي الانكشافي، وأنه لا يتنافى مع الأسباب، وظن كثير من الناس أن آدم احتج بالقدر السابق على

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء/ ٣٤٠٩/ فتح)، في (التفسير/ ٤٧٣٨/ فتح)، مسلم في (القدر/ ٢٦٥٢/ عبد الباقي).

نفي الملام على الذنب وهذا غير صحيح، وذلك لأسباب كثيرة :-

أن موسى - عليه السلام - أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعله فاجتباه ربه وهداه واصطفاه، وآدم أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته.

وإنما لام موسى آدم على المصيبة التي نالت الذرية بخروجهم من الجنة ونزولهم إلى دار الابتلاء والمحنة بسبب خطيئة أبيهم، فذكر الخطيئة تنبيهًا على سبب المصيبة والمحنة التي نالت الذرية، ولهذا قال له: «**أخرجتنا ونفسك من الجنة**» وفي لفظ «**خيبتنا**».

فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، وقال: إن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب خطيئته كانت مكتوبة بقدره قبل خلقه، والقدر يحتج به في المصائب دون المعائب.

أي أتلومني على مصيبة قدرت عليَّ وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا سنة، قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

إن آدم عليه السلام ما خلق ليعيش في الجنة، وإنما ليكون في الأرض خليفة يحكم بحكم الله، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة: ٣٠].

وهذا الحديث لا يدل على شيء قط مما يفكر فيه المعتذرون بالقدر، فالحديث برواياته الأخرى يشير إلى أن موسى كان يريد تحميل «آدم» متاعب الإنسانية كلها، ويرجع شقاء أبنائه جميعًا إلى أكلته المشئومة من الشجرة، وقد دافع آدم عن نفسه بصدق.

فإن وجود الحياة البشرية على الأرض لم يكن نتيجة - طبيعية ولا عقلية - لذنب آدم.

لأن آدم عليه السلام سرعان ما تاب من معصيته التي كانت نسيانًا، وكانت توبته وهو في الجنة، وتاب الله عليه قبل هبوطه إلى الأرض، فهبوطه ليس عقوبة، لأن الله أكرم من أن يعاقبه بعد أن تاب عليه، وقد قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٣٧-٣٨].

وقال سبحانه: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف: ٢٣-٢٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢١-١٢٣].

وإنه إذا لم يتب الله - عز وجل - على آدم وأراد أن يعاقبه، فليعاقبه وحده دون ذريته، حيث كان من الممكن جدًا أن يعاقب آدم على خطئه بأي عقاب آخر، كالتوبيخ أو الحرمان المؤقت أو غير ذلك.

أما ترتيب وجود العالم الزاخر بآلامه وآماله على هذه المعصية فهذا قدر إلهي محض، لم يدر بخلد آدم، ولا يجوز أن يعاتب عليه، ومن هنا حج آدم موسى.

أما مسئولية آدم الخاصة عن ذنبه الذي استغفر الله منه، فلا صلة لها بهذا الحديث.

إن خطيئة آدم ليست سببًا شرعيًا، ولا علة عقلية، لوجود العالم وانتشار الناس في الأرض يشقون ويكدحون، ولما توهم موسى ذلك عاتبه آدم ورده إلى أن ذلك القضاء المكتوب، فلا يجوز لأي امرئ أن يحمل الأب الأول هذه الأوزار كلها.

إن آدم عليه السلام - ما خلق ليكون في الجنة، بل في الأرض، وبقاؤه في

الجنة، فترة تشريفية وتكريم، فلو لم يأكل آدم من الشجرة، لهبط إلى الأرض أيضًا، فكيف نحمله أوزار البشرية كلها بشقائها؟ وكيف يقال آدم احتج بالقدر على معصيته؟! آدم لم يحتج بالقدر على عدم لومه على معصيته؛ لأنه لو كان ذلك كذلك لما كان مستحقًا للذم أو اللوم ولا العقاب.

ولو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا لمن أذنب، لما كان آدم تاب واستغفر.

وأيضًا لو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا له، فلماذا أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض؟ على قول من قال: إن هبوطه إلى الأرض مترتب على أكله من الشجرة.

ولكن الصواب أن هبوطه إلى الأرض من جنس الابتلاء، وهو وإن تاب، لكن من تمام التوبة أن يعمل صالحًا، وهذا لابد في دار التكليف، فيكون في الأرض، فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته، وإذا كان الله - تعالى - يبتلي العبد بالحسنات والسيئات، والسراء والضراء، فالتائب أحق بالابتلاء، وهبوط آدم ابتلاء له.

إن آدم يعلم - من غير مراء - أنه أخطأ حين أكل من الشجرة، وقد اعترف بذلك عن صدق، وطلب من الله المغفرة فغفر له.

أما إنه مصدر ما وقعت فيه البشرية كلها من عناء؛ فهذا ما أنكره - وهو محق - وجعله من شئون القدر الأعلى، واقتنع موسى بذلك، كما رأيت.

ومن السخف أن نخطئ نحن، ثم نسوق كلمة آدم «**أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني**» عذرًا لنا على خطئنا، وقد علمت أن الله لم يجبرنا على شيء، ولم يكرهنا على أمر.

والصورة التي يرسمها الجبريون للعالم لا ترمز إلا إلى الفوضى المطلقة والخلط الشائن.

فآدم لم يظلم أولاده، الذين ولدوا بعد هبوطه من الجنة وكونهم صاروا في الدنيا دون الجنة أمر كان مقدراً عليهم ولا يلام آدم عليه.

وذنب آدم كان قد تاب منه، فلم يبق مستحقًّا الذم ولا العقاب.

وكيف يعاقب الأولاد بذنب أبيهم؟ مع أنه تاب منه.

وهل يعاقب الولد بذنب الوالد؟ مع أن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

وهل يلام الوالد على أنه أهبط أولاده من الجنة؟ مع أنه لم يكن هناك أولاد أصلاً، إنما هو آدم ومعه حواء!!

وإذا كان آدم خلق ليكون في الجنة، فما معنى قول الله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. أم يجوز أن نقرأها: إني جاعل في الجنة خليفة؟!!

وكيف وصلت سخافة العقول مداها حين رأى النصارى أن خطيئة آدم شملت البشرية كلها؟! فهم جميعًا في النار بسبب خطيئة أبيهم آدم، وأبى الله أن يعاقبه؛ لأن الله لا يعاقب إنسانًا، وإنما يعاقب إلهًا مثله، ولذلك أنزل ابنه الوحيد لأنه يحب العالم من أجل أن يكفر عن خطيئة أبيه آدم، وخطايا البشرية بالتبعية، فكان ما كان من أمر المسيح، وصلبه راضيًا، مغتبطًا بذلك الأب والابن!!

مع أن هذا يخالف ما جاء في الكتاب المقدس عندهم «لا يؤاخذ الابن بذنب الأب، كل إنسان بخطيئته يؤخذ» فأين هذا مما زعموه؟!

وهل كان المسيح راضيًا بالصلب حين قال: إيلي إيلي لم شبقتني، أي إلهي إلهي لم تركتني؟ وهل كان أبوه أيضًا راضيًا؟ ولئن كان الأمر كذلك فلم العداء لليهود الذين صلبوا الابن الوحيد؟ مع أنهم نفذوا مراد الله، وحققوا إسعاد البشرية بتكفير الخطيئة!!

وهل كان المصلوب في الابن الوحيد!! هو الناسوت أم اللاهوت؟

فإن كان الناسوت فقد عاقب الله إنسانًا، فكان أولى أن يكون آدم صاحب الخطيئة بدلاً من الابن الوحيد البار الذي يعاقب على ذنب غيره، كيف وهو الحبيب البار الوحيد؟!!

وإن كان اللاهوت فما الذي صعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه، وأخذ يحاسب؟! لم كل هذه السخافات؟ إن كانت من المسلمين الذين يتعللون الأقدار، أو الجبريين الذين يقولون بالإجبار، أو من النصارى الذين قالوا بهذه المهاترات وتلك الأقذار، وزعموا البنوة لله الواحد القهار، وارتضوا صلبه، وهو الابن البار!! وأين هذا من عدل الملك الجبار، أو من رحمة العزيز الغفار؟

أو ليس قادرًا على أن يعذب آدم، أو يتوب عليه، وله في ذلك المشيئة والاختيار، فما الذي يجبره على أن يحكم على البشرية كلها بالدمار، حتى يأتي الابن البار، فبصلبه يغفر الخطايا والأوزار، ويكفر عن خطيئة أبيه آدم، وحتى الأنبياء الأطهار والمرسلين الأبرار، الذين كانوا جميعًا في النار، حتى جاء المسيح ـ ابن الله، أو ابن آدم، أو ابن مريم، حيث قالوا ـ زعمًا ـ هو ابن الله، وهنا قالوا: ليكفر خطيئة أبيه آدم، فالمسيح بين النصارى محتار، وهو عند اليهود شيء يجلب العار، فما هذا العار والشنار؟ وماذا أقول وماذا يقال؟ أكل ذلك تلام فيه الأقدار؟ والإنسان بريء من الأوزار!! لأنه مجبر من الملك القهار!! لقد بلغ السيل الربى، والقِدر فار.

* * *

المبحث الحادي عشر

حديث: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله...»

قال رسول الله ﷺ: **«لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا»**[1].

الفهم المقلوب لهذا الحديث هو قلب معنى التوكل، وجعله بمعنى التواكل، بمعنى ترك العمل، وبذلك يصبح الحديث دعوة للكسل، ويفسرون ذلك بأننا لو ألقينا حملنا على الله، وتركنا أسباب كسبنا؛ لرزقنا كما يرزق الطير التي يرزقها الله من غير أسباب، وتعيش من غير تعب!!!

نقول: وهذا الفهم المقلوب المعنى، الخاطئ في المبنى، بعيد عن المراد في المبنى والمعنى.

والحديث حجة على القوم لا لهم، ولو كان بالمعنى الذي ذهبوا إليه لكان الحديث يقول: «.. لرزقكم كما يرزق الطير، تلبث في أعشاشها، وتفتح أفواهها، فتصبح خماصًا وتمسي بطانًا» يظنون أن الحديث جاء يحث على البطالة والكسل، مع أنه جاء للحث على النشاط والعمل.

فالمراد من حق التوكل أن يعتمد الإنسان على الله تعالى، مع اتباع سننه التي سنها في الطلب، فيحصل الصالح من أسباب مطلوبه، مما جعله الله سببًا، ويدقق النظر في ذلك ما شاء حسبما طالبه الله تعالى به، ثم بعد ذلك يستعمل

---

(1) صحيح: أخرجه الترمذي (٤/ ٢٣٤٤)، وابن ماجه (٢/ ٤١٦٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣١٠).

الأسباب ليناجي ربه بسره : إني قد أتيت بما في استطاعتي على مقدار ما وهبتني، وما بقي مما لا أعلم ولا أملك فهو في يدك، فأعني بقدرتك، ولا تحرمني معونتك، ثم يمضي في عمله . . هذا هو حق التوكل .

وقد أشار إليه ﷺ في قوله : «... **تغدو خماصًا، وتروح بطانًا**» .

فإنما أراد بذلك أن الطير إنما تسير في تحصيل معاشها على الإلهام الذي أودعه الله فيها، ألهمها معرفة الأماكن التي فيها أقواتها، كما ألهمها الغدو إلى تلك الأماكن؛ لتصيب أقواتها منها، فهي تعمل بإرادتها على ذلك الشعور الذي منحه الله إياها .

فحق التوكل لا يتم لنا إلا بأن نجري في أعمالنا على ما يقوم عندنا مقام الإلهام عند الطير، والذي يقوم عندنا مقام الإلهام هو «العقل» فلا نكون متوكلين حق التوكل حتى نستعمل نفوسنا في الوسائل التي توصلنا إلى بلوغ الغاية من أعمالنا، وأن نجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال في طرق الوصول إلى المقصود، فالاعتماد على الله بهذه الطريقة كامل في نجاح الأعمال . وبهذه الوسائل يسهل علينا التوفيق بين السعي والتوكل .

التوكل على الله تعالى : أخذ بالأسباب، واعتماد على رب الأسباب، سبحانه وتعالى، وأمر الأسباب كما هو مقرر : الأخذ بالأسباب واجب، وتركها معصية، والاعتماد عليها شرك .

والتوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب؛ لأنه في ذلك كالقدر، بل هو منه .

وإمام المتوكلين، وسيد المتقين، وخير خلق الله أجمعين - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين - الطاهرين ضرب لنا المثل الأعلى في حياته ﷺ .

كيف كان ﷺ مثالاً في العمل والكسب، والأخذ بالأسباب، والاعتماد بعد ذلك على الملك الوهاب، فالنبي ﷺ - وهو القدوة والأسوة - لما بعث في

دياجير الجهل، وتحكم سلطان الشرور، وقبائح العادات في الأمم التي أرسل إليها، لم يقل: إن ذلك مما أراده الله، ولم يسلم أمره للقدر بترك العمل؛ وإنما كان عاملاً لا يكل، ودائبًا لا يمل، وكان إذا استدعى الأمر أن يواصل الليل بالنهار، فيسهر ولا ينام، وجد، وبلغ به الجد شأوًا لم يبلغه أحد من الأنام.

هل اتكأ - يومًا - على وسادته، واكتفى بالتسليم للقدر في إتمام دعوته، قائلاً: الذي كفل لي النصر يكفيني التعب، وضمانة الله لإعلاء كلمة دينه تغنيني عن النصب؟!

كلا... بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطًا، ولا تجد العصمة الإلهية من نفسه إلا حزمًا واحتياطًا.

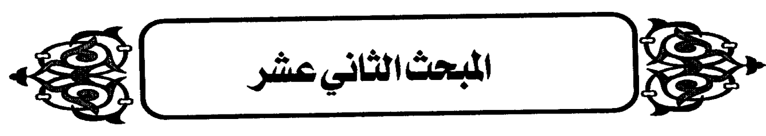
وجاء الصحابة على أثره، وتبعهم من جاء بعدهم من السلف الأولين، وكانوا أكمل الناس إيمانًا بإحاطة علم الله، وشمول قدرته، وأعرف الناس بقدر ما أتاهم الله من قوتي العقل والاختيار، وكانوا أسوة في السعي، ومثلاً في الدأب والكسب، فذاك التوكل.

وقد حثنا الله - تبارك وتعالى - على التوكل بقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وفي صفات المؤمنين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وهذا نبي الله - موسى عليه السلام - يوصي قومه بالتوكل على الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤-٨٥] وهذا نبي الله هود يقول: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] وهذا نبي الله يعقوب يقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧] وهؤلاء الرسل يقولون: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ

هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢] وها هم المؤمنون يقولون، إذ قيل لهم ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤] فأنعم وأكرم به سبحانه كما قال: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢] ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨] وقال مؤمن آل فرعون: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٤ - ٤٥].

وهكذا أكثر القرآن الكريم من تلك القضية التي هي ركن ركين في عقيدتنا الإسلامية «التوكل» إنه الاستسلام لله تعالىٰ، مع تفويض الأمر إليه، اعتماداً ووثوقًا به، أمر الله تعالىٰ به، في كثير من آي القرآن الكريم، وخص به نفسه ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢] ووعد بالكفاية للمتوكلين ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] وفي التوكل سكون القلب مطمئنًا إلىٰ كفاية الله تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦]؟ بلىٰ، فمن هنا كان التوكل علىٰ الله تعالىٰ عقيدة، وقد علم أنه لا يتنافىٰ مع الأخذ بالأسباب.

* * *



المبحث الثاني عشر

حديث : « من رأى منكم منكرًا فليغيره...»

قال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[1].

هذا الحديث الصحيح فهم فهمًا مقلوبًا، فتم فهمه على النحو التالي: تغيير المنكر باليد للحكام، وباللسان للعلماء، وبالقلب للعوام، وهذا التقسيم ليس صحيحًا.

لأن كل واحد يمكن أن يغير المنكر إما باليد أو باللسان أو بالقلب، حسب حالته وظروفه، فالرجل الذي هو من عوام المسلمين، وقالوا: حكمه تغيير المنكر بالقلب، لماذا لا يغير المنكر بلسانه مع والديه وإخوته مثلاً؟! ولماذا لا يغير المنكر بيده مع زوجته وأولاده كذلك؟

هذا.. والحديث وإن كان بدأ بتغيير المنكر باليد قبل اللسان والقلب، فلعل هذا من باب درجات تغيير المنكر، فأعلاها اليد، ومنه الجهاد في سبيل الله، وأوسطها اللسان ومنه المواعظ والنصيحة، وأضعفها القلب الذي ليس معه كثير جهد، ولكن الإنكار بالقلب فقط.

ولكن ليس كل منكر يكون تغييره - بادئ ذي بدء - باليد، بل لابد من إنكار القلب أولاً، ومعه يغير اللسان المنكر، وتغيير اللسان يشتمل على مراحل:

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في(الإيمان/ ٤٩/ عبد الباقي).

التعريف مع التلطيف، ثم التخويف، ثم التعنيف؛ لينتقل بعد ذلك إلىٰ تغيير المنكر باليد إن استدعىٰ الأمر ذلك، وإلا لو أجدىٰ تغيير المنكر باللسان فإنه لا يتحول إلىٰ اليد.

هذا... وعندنا الأمر بالمعروف يسبق النهي عن المنكر، كما قال تعالىٰ ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

كما قال سبحانه ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] فلا يجوز تغيير المنكر باليد دون أن يكون بالقلب أو باللسان، فلابد أن ينكر القلب، وأن يتمعر الوجه، ولا يجوز تغيير منكرات دون منكرات، كما لا يجوز ترك تغيير المنكر لوقوع المنكر الأكبر وهو تنحية الشريعة الإسلامية، أو نترك تغيير المنكر باسم انتشار الكفر في الناس، وليس بعد الكفر ذنب، وهناك كثير من المنكرات في زماننا يأتيها أصحابها دون معرفة بحرمتها؛ لكثرة من يأتونها، حتىٰ صارت كأنها الأصل، وغيرها الاستثناء، أو كأنها حلال من كثرة من يرتكبونها وفيهم أهل علم ودين!! ومثال ذلك: الذين يدخنون السجائر ونحوها وغيرها... كم نسبتهم في المجتمعات المسلمة؟!!

وكذلك نسبة التبرج في النساء والفتيات المسلمات!! ونسبة الاختلاط بين الأسر، وفي الجامعات، وأماكن العمل وطرق المواصلات.

هذه المنكرات المتفشية وأمثالها تحتاج إلىٰ تعريف وتلطيف وتخويف وتعنيف، وإذا أجدت مرحلة فلا تنتقل إلىٰ ما بعدها.

أما التعريف فدليله قول الله تعالىٰ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦].

وكذلك قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥].

وأما التلطيف فدليله قول الله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وفي القاعدة الشرعية: «إذا أمرت بالمعروف فبالمعروف، وإذا نهيت عن منكر فبغير منكر».

وقد علم في قواعد تغيير المنكر ألا يؤدي إلىٰ منكر أكبر، ولا إلىٰ فتنة أعظم. ثم ما لم يجد التعريف والتلطيف، يأتي دور التخويف.

والتخويف يكون بنقمة الله في الدنيا، أو عذاب الله في الآخرة، والتذكير بالجنة والنار والتذكير بآيات الترغيب والترهيب، كما هو شأن القرآن في هذا الجانب، ومع التخويف أو بعده يكون التعنيف الذي جاء في قول الله تعالىٰ: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩، والتوبة: ٧٣] دون استرسال أو مزيد من التعنيف، ولكن بالقَدْر الذي يكفي منه، والذي يختلف باختلاف حال الداعي، وحال المدعو أيضًا، وحيث تُجدي الكلمة فلا داعي للعصا، وقد قيل: والعبد يُضرب بالعصا، والحر تكفيه المقالة، وتجدي العصا حين تعييك الكلمة، وفارق بين تعنيف زوجة، وتعنيف ولد، فمثلاً، قد تعنف الزوجة وتضرب بالسواك، ولكن تعنيف الولد بإظهار السوط، أو بضربه بالعصا تأديبًا له علىٰ ترك الصلاة مثلاً وقد بلغ العاشرة من عمره لقول النبي ﷺ: «**علموا أولادكم الصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها لعشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع**»[1].

وبالنسبة لتأديب الزوجة قال تعالىٰ: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في (الصلاة/ ٤٩٥) وهو في «صحيح الجامع» (٥٨٦٨).

هذا، وتعنيف اللسان يسبق التعنيف باليد، ولا يكون التغيير باليد إلا على منكر مجمع على إنكاره، وليس على منكر مختلف فيه، ما بين مجوز ومانع، كالتصوير مثلاً المسمى «بالفوتغرافي» وقد عُلِمَ خلاف العلماء فيه، فمثل هذا إن غيرت باللسان، لا تغير باليد بتكسير «الكاميرا» مثلاً، أو ضرب من يصور بها!!

وبحيث لا يؤدي هذا المنكر إلى منكر أكبر، ولا إلى فتنة أعظم، ولا لتفويت مصلحة للدعوة، ومثاله: من ضرب صاحب المنكر بيده فطعنه الآخر بسكين، فهذا أدى إلى منكر أكبر، أو راح مجموعة من الشباب يحطمون مكانًا به منكر كبيع الخمور، وأشرطة «الفيديو» وقد علم يقينًا أن هذا سيؤثر على مصلحة الدعوة، وسير الصحوة، فلابد من التريث آنذاك، وإذا ذهب مجموعة من الشباب لمنع مسرحية معروضة في الجامعة، فعلم أنهم سيفصلون من الجامعة بسبب ذلك، فهنا لا نلزمهم بتغيير هذا المنكر، ونبحث عن البدائل، بحيث لا نفوِّت عليهم مصلحة تعليمهم، وإكمال دراستهم، وفي ذات الوقت لابد من درء المفسدة الذي هو مقدم على جلب المصلحة.

ولكن منع هذه الفتنة، ودرء هذه المفسدة يمكن أن يتم دون أن يترتب عليه مفسدة ترك التعليم لمجموعة من خيرة الشباب في الجامعة، وذلك بالذهاب إلى العميد «أي عميد الكلية» ومحادثته في هذا الأمر بأسلوب الإقناع، وبيان ما يترتب على هذه المسرحية من مفاسد ومضار، واختلاط بين الشباب والفتيات، ولا ندري ما يحدث وراء «الكواليس»!!

وقد يكون الكلام من الأساتذة أولى وأرقى من كلام الطلاب مع عميد الكلية، وهكذا.

هذا وقد علم أن تغيير المنكر حسب الاستطاعة، وهنا ليس في استطاعة مجموعة من الشباب تعد على أصابع اليدين أن تواجه حشداً كبيراً من

الشباب، كلهم قد اجتمعوا لأداء المسرحية، والآخرون لمشاهدتها وتشجيع زملائهم على هذا النشاط الضخم!!!

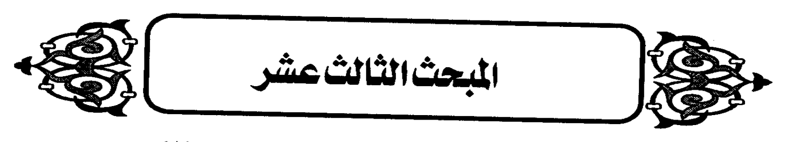
ولذلك فعند عدم الاستطاعة تأتي قاعدة أخرى: «من لم يستطع أن يزيل المنكر، فليزل عنه» أو نقول: إن لم تُزِل المنكر، فزُل عنه، أي ببعدك عن مكانه، حتى لا تقع في منكر أكبر، أو تلقي بنفسك في التهلكة، بمحاولتك وحدك تغيير المنكر وسط جموع حاشدة، وتخيل لو أن أخًا مسلمًا صاحب عقيدة صحيحة، ذهب إلى مسجد به قبر يُعبد، ولما هاله ما يفعله الناس عند القبور، راح يصرخ فيهم ويبين أن هذه منكرات، وتلك شركيات، فقل لي: كيف حاله بعد قولته هذه؟! أتستطيع أن تتخيل ما يحدث له من جموع الصوفيين والغوغائيين والطرقيين والمتنفعين؟! أترك هذا لخيالك.

إنَّ تغيير المنكر باليد يكون أولاً لولاة الأمر المسلمين، وكذا لكل إنسان في حدود ولايته، فالرجل يستطيع أن يغير المنكر في بيته - مع زوجته وأولاده، كما ضربنا المثل - وكذلك يغيره بإغلاق «التلفاز» بيده، مثلاً، وبتكسير «العود» الذي اشتراه ولده، وتمزيق الثوب القصير الذي اشترته ابنته، وهكذا.

كما أن مديراً لشركة يغير بيده مثل قرارات الجزاء العقوبة للمقصرين والمهملين والمختلسين، ومثله رئيس المصلحة، وصاحب المصنع، وكذا القاضي في محكمته، فمن يحول دون تغييرهم المنكر بما يرونه من عقوبات تتفق مع حجم المنكر الذي وقع؟!وكل ذلك باليد.

والحاكم المسلم يغير المنكر بإقامة الحدود، وفرض العقوبات، والتعزيرات، وغير ذلك.

ولتغيير المنكر ضوابط وشروط لابد لمن يتعرض لتغيير المنكر أن يكون على دراية بها، وعلى فقه كامل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسألة فقه التغيير الذي يختلف باختلاف الزمان والمكان والحالة، والحال، ولهذا بابه الذي يرجع إليه فيه، وكتبه التي تناولته، لمن أراد المزيد.



المبحث الثالث عشر

حديث: « توسل الأعمى بالنبي محمد ﷺ»

أخرج الترمذي في سننه، والإمام أحمد في مسنده ـ بسند لا بأس به.

«أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ، فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: **إن شئت دعوت لك، وإن شئت صبرت، فهو خير لك**، فقال: **ادعه**، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء، فيصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضي لي، اللهم شفعه فيَّ، قال: ففعل الرجل فبرأ»[1].

والفهم الخاطئ لهذا الحديث تمثل في شبهة يرددها المتصوفة، والمتوسلة، يقولون: ما دام الضرير قد علمه الرسول ﷺ أن يقول: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة... إلخ فلم لا أفعل أنا مثله لقضاء حوائجي؟ وفي هذا دليل على جواز التوسل بالنبي ﷺ، وبجاهه، وبركته، ونحو ذلك، فهذه هي الشبهة.

والجواب عليها: إن الحديث يدل على جواز التوسل بدعاء النبي ﷺ، ويستلزم ذلك أن يكون في حياته، ومما هو معلوم في التوسل المشروع، دعاء المسلم لأخيه المسلم، لاسيما بظهر الغيب، فكيف لو كان الداعي هو أول المسلمين، وخير خلق الله أجمعين، وخاتم النبيين، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين؟!!

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (الدعوات/ ٣٥٧٨) ، النسائي (٦/ ١٠٤٩٥/ كبرى)، ابن ماجة في (إقامه الصلاة/ ١٣٨٥) وهو في« صحيح الجامع »)١٢٧٩(.

والذي يؤكد على أن الحديث يدل على جواز التوسل بالدعاء، لا بشخص النبي ﷺ، أو بجاهه، مجيء الصحابي إليه يطلب منه الدعاء، وإلا لقال من بيته، دون عناء الحضور: اللهم بحق نبيك محمد ﷺ إلا رددت عليّ بصري، والتوسل بدعاء النبي ﷺ، لا ينكره إلا جاهل! وهذا رسول الله ﷺ حي بين ظهراني القوم، والرجل يخاطبه، والرسول ﷺ يدعو له، ويوجهه في ذات الوقت إلى الله سبحانه وتعالى، بأن يتوضأ ويحسن الوضوء، ويصلي ركعتين، بنية قضاء الحاجة.

وفي هذا من إخلاص التوحيد ما فيه، حيث أخذ الرجل بالأسباب، ولجأ إلى الله سبحانه، رب الأسباب مع أن الكلام هنا مع النبي محمد ﷺ، ومع ذلك لم يقل له: الأمر مفروغ منه، والموضوع تم، وخلافه!! لا، وإنما علمه اللجوء إلى الله، والاستعانة بالله، والاعتماد عليه، وأن يفزع إلى الصلاة في الملمات، وهذا الأعمى قال: يا رسول الله، ادع الله أن يعافيني وهذه وسيلة مشروعة، وخلافنا مع الصوفية ليس على التوسل بدعاء الأحياء؛ وإنما على التوسل بالأموات.

فلماذا يوضع الحديث في غير موضعه، ويفهم على غير وجهه، بقلبه من الأحياء إلى الأموات، وللدلالة به على جواز التوسل غير المشروع بالأنبياء والأولياء والصالحين، بالطرق المنكرة التي ترتكب عند قبور الأولياء والصالحين خاصة، باسم الوسيلة والبركة؟!!

حتى يقال: عندنا عن القبر المعروف بقبر «السيد البدوي»: البدوي الرجل المهاب، البدوي قطب الأقطاب، من دعاه في البر أو البحر أجاب!! الله أكبر، ماذا ترك لرب الأرباب، وأبقى للملك الوهاب؟!! مع أن المشركين الأوائل كانوا إذا ركبوا البحر كما قال الله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

هذا، والتوسل مركب من عدة أمور، لا يتم إلا بها، وبعض هذه الأمور قد تعذر الحصول عليها بوفاة الرسول ﷺ، ألا وهو دعاء الرسول ﷺ لأحدنا اليوم وشفاعته لنا عند الله تعالىٰ في قضاء حاجتنا، فلو قام أحدنا اليوم يقول: يا رسول الله، ادع الله لي أن يقضي حاجتي؛ لكان قوله باطلاً وضلالاً، ولا معنىٰ له، إذ الرسول ﷺ ليس أمامه يسمعه ويراه ولا يدعو الله تعالىٰ له أبدًا.

ولو قال أحدنا اليوم هذا الدعاء لكان كاذبًا في قوله؛ لأنه لم يقدم بين دعائه الرسول ﷺ حتىٰ يقول لله تعالىٰ: اللهم إني أتوجه إليك بنبيك، اللهم شفعه فيَّ.

إنما يقول هذا من قام الرسول ﷺ يدعو الله تعالىٰ له، كما دعا للضرير.

ومن هنا لم يبق هذا التوسل بتلك الكيفية جائزًا ولا نافعًا؛ لفقد أعظم أركانه، وأهم عناصره، وهو دعاء الرسول ﷺ للمتوسل.

وعلىٰ فرض أن مؤمنًا قام فتوسل به، وبرأ من مرضه أو قضيت له حاجته، فإن ذلك لا يدل علىٰ جواز مشروعيته، إذ حاجته قد قضيت بقضاء وقدر، كما قد يحصل لبعض الناس أن يدعو ميتًا، ويتشفع به فتقضىٰ حاجته.

ويقول: سيدي فلان قضىٰ حاجتي، والحقيقة أن وسيلته شرك محرم وما قضي له من حاجته إنما وافق فيه القدر فقط لا أن السيد دعا له، وأن الله تعالىٰ قد استجاب له.

هذا ولا بأس أن يفعل المسلم ما يمكنه فعله من هذه الوسيلة ويتوسل به إلىٰ الله تعالىٰ، بأن يتوضأ ويحسن الوضوء ويصلي ركعتين، ويقول: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بإيماني وحبي لنبيك نبي الرحمة محمد ﷺ أن تقضي حاجتي، ويسمي حاجته، فإنه يرجىٰ أن يستجيب الله تعالىٰ له، ويقضي حاجته.

هذا وليس في حديث الأعمىٰ أي توسل شركي مما عليه العامة أو يطلبه

الجهال، إذ كل طلبه وتوجهه كان إلى الله عز وجل، يطلب الأمر ممن يملكه، والشفاعة ممن يأذن بها.

فقوله: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة «أي بدعائه» كما هو واضح من الحديث: «**ادع الله لي**».

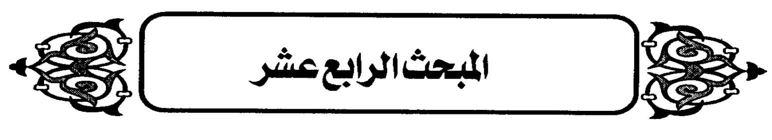
لا بشخصه، وإلا ما ذهب إليه، وتوسل بشخصه من أي مكان.

وقوله: يا محمد نداء، يقصد به استحضار المنادى في القلب.

إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، فهو يطلب قضاء الحاجة من الله تعالى، ويدعو ربه أن يقبل فيه شفاعة النبي ﷺ ودعاءه «اللهم شفعه فيّ».

وفي الأخير: نقرر أن توسل الأعمى من جنس التوسل المشروع، وليس هذا مثار خلاف، وإنما الخلاف في التوسل بالأموات، ولا يجوز سحب الحديث إليه، والاستدلال به عليه. والله أعلم.

* * *



المبحث الرابع عشر

حديث: «توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما»

أخرج البخاري: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقىٰ بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون»[1].

ووجه الشبهة في الحديث أن يقال: ما دام عمر رضي الله عنه قد قال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا» وهو إقرار من عمر بأنهم كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ، فلم لا نتوسل نحن اليوم بالنبي ﷺ؟!

وكذلك توسله بالعباس رضي الله عنه يدل علىٰ جواز التوسل بآل البيت والصالحين!!

وكل من ترجىٰ بركته، وفيه إظهار الإكرام لآل البيت في صورة العباس رضي الله عنه!!

والجواب على هذا الفهم المقلوب، نقول: إن توسلهم - رضي الله عنهم - بالنبي ﷺ كان بطلبهم منه أن يدعو الله - تعالىٰ - لهم بالغيث، فيدعو، فيستجيب الله دعوته، ويسقيهم، كما قد حصل مراراً.

لا أنهم كانوا يتوسلون إلىٰ الله - تعالىٰ - بذات النبي أو بجاهه ﷺ، فيقولون: اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك، أو بجاه نبيك، والنبي غائب عنهم، ولم يدع الله تعالىٰ لهم.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الجمعة // ١٠١٠/ الفتح).

إذ لو كان الأمر هكذا لما توسل عمر بالعباس، رضي الله عنهما وإنما كان يتوسل بالنبي ﷺ أو بجاهه، أو يقف عند قبره، ويطلب منه السقيا، والعهد به قريب، زمانًا ومكانًا، ولكن عمر - رضي الله عنه - لم يقل هذا ولم يفعله؛ لأنه يعلم أن التوسل بالنبي ﷺ كان بدعائه، وصلاته عليه الصلاة والسلام.

ولما توفي ﷺ لم يبق ليدعو لهم، فتوسلوا بالعباس ليدعو الله لهم، فكان يدعو، ويستجيب الله له، فيسقون.

ثم هم في توسلهم بالعباس هل قالوا بجاه العباس، وبحقه، وقربه من النبي ﷺ كالذي يقوله العامة في زماننا؟ بالطبع: لا، وهذا هو الخطأ في المسألة.

وكذلك أساس الخلاف في من مات، لا من هو من الأحياء، وتوسلهم بالنبي ﷺ كان في حياته، وتوسلهم بالعباس بدعائه، وفي حياته، ولو كان التوسل جائزًا بالأموات، لتوسلوا بخير من مات ﷺ، وكيف يلجأ إلى العباس، ويترك خير الناس ﷺ؟!!

ثم ماذا قال العباس - رضي الله عنه -؟ لقد قال: «**اللهم لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يكشف إلا بتوبة، وقد توجه بي القوم إليك - لمكاني من نبيك - وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث**» فهذا من دعاء المسلم لإخوانه المسلمين، وهو من الجائز المشروع.

أما لماذا اختار عمر - رضي الله عنه - العباس رضي الله عنه؟ هل لأنه من آل البيت كما قالوا دل على جواز التوسل بآل البيت؛ لأن العباس عمّ النبي ﷺ ولقوله: «وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك..»؟

نقول: لو كان الأمر كذلك فهناك من هو أولى من العباس بهذا المعنى وأقرب إلى آل البيت منه، وهو سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن والحسين، فكان يؤتى بهم جميعًا - إذا صح ما ذهبوا إليه - ويوقفون

بين يدي الله، ليقول الناس: اللهم هؤلاء آل بيت نبيك محمد ﷺ، فبحقهم وجاههم وبركتهم اسقنا الغيث!! فهل حدث هذا؟

وأما قول العباس: «لمكاني من نبيك» فهو من باب هضم النفس، حتى لا يذكر شيئًا يزكي به نفسه؛ وإنما ذكر شيئًا لا فضل له فيه، ولا يد له فيه، وإلا فاختيار عمر بن الخطاب - وهو أمير المؤمنين آنذاك له - إنما كانت دوافع عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكان عمر رضي الله عنه أولى بالصلاة والدعاء، ولكنه هو أيضًا تنازل عن حقه هذا، وإن كان هو الأفضل يقينًا؛ لأنه من العشرة المبشرين بالجنة، ومن الخلفاء الراشدين، رضي الله عنه وأرضاه.

ولكن عمر - رضي الله عنه - قدم «العباس» لكبر سنه، واجتهاده في الطاعة، وتقواه بعد إسلامه، وقد يقدم المفضول مع وجود الفاضل ومع ذلك فلا يخفى ما كان للعباس من فضل بعد أن أسلم حيث اجتهد في الطاعة، بعد أن تأخر إسلامه، فلما أسلم حسن إسلامه، وراح يقف مواقف لصالح الإسلام كالتي وقفها ضده، ليبدل سيئاته حسنات، مع اجتهاده في الطاعة والتقوى والجهاد في سبيل الله، والله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]

فمع هذه الخصال وتلك المزايا، ما الذي يمنع «عمر - رضي الله عنه -» من اختيار العباس ليدعو لهم؟! ولو كان بسبب أنه من آل البيت لما كان وحده، ولجيء ببقية آل البيت معه!

ولكن هذا لم يحدث، فالحديث حجة على القوم، وليس لهم؛ لأنهم فهموه بالمقلوب، وفهموه بالهوى، فالحديث يبرهن برهانًا واضحًا وحجة

قاطعة على أنه لا يجوز التوسل بالأموات.

كما أنه لا يدل على قصر طلب الدعاء ممن نتوسم فيهم الصلاح فقط، لمن نظن بهم التقصير، بل الأمر أعم من ذلك، فيما ينبغي على آحاد الأمة أن يدعوا بعضهم لبعض: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

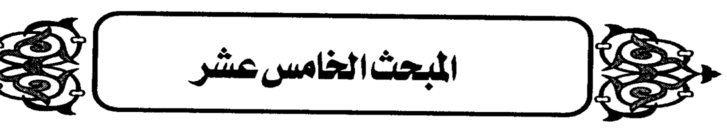
ويطلب الدعاء من هو أعلى ممن هو أدنى، كما طلب الرسول ﷺ من عمر أن يدعو له، إذ استأذنه في الخروج إلى العمرة، فأذن له. وقال: «**لا تنسانا يا أخي من دعائك**»[1].

كما أمر الرسول ﷺ جمهور الأمة أن يدعوا له، أو لسنا نصلي عليه، كما أمر الله؟ وصلاتنا دعاء، فما صلة ذلك بالتوسل على هذا النحو المجنون الذي سقط فيه العامة، وجاراهم عليه الكسالى والمرتزقة والقاصرون من أدعياء العلم؟

* * *

---

(١) رواه أبو داود (١٤٩٨)، والترمذي (٣٥٦٢) وفي سنده (عاصم بن عبد الله» وهو ضعيف، وانظر المشكاة (٢٢٤٨).



المبحث الخامس عشر

حديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد...»

أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»**[1].

الفهم المقلوب للحديث أنه زعم قوم أن أفضلية مسجد النبي ﷺ تكمن في دفن النبي ﷺ فيه، ولذلك كانت الصلاة فيه خيراً من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام.

ويترتب عليه أفضلية كل مسجد به قبر لواحد من آل البيت أو الأولياء والصالحين، ومن مظاهر ذلك: شد الرحال لقبور الأولياء والصالحين، وعمرانها بكثرة المصلين فيها بزعم أفضلية الصلاة فيها على غيرها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

نقول: وهذا من الملمات التي ألمت بهذا الدين، ومن الخرافات التي دخلت فيه، والبدع التي انحرفت بأصحابها عن منهج النبي محمد ﷺ.

هذا.. وقوله عليه الصلاة والسلام: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»** واضح في تخصيصها، وعدم قياس غيرها، وأفضليتها على ما سواها، وليست أفضليتها مترتبة على وجود قبور بها أو دفن أنبياء بداخلها، كما أن أفضلية مسجد النبي ﷺ ليست بسبب دفنه في مسجده ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا أفضلية

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الجمعة/ ١١٨٩/ فتح)، مسلم في (الحج/ ٨٢٧/ عبد الباقي).

الصلاة فيه لذات السبب، وذلك لأن مسجد النبي - عليه الصلاة والسلام - لم يبن على قبره، كما أنه ﷺ إذ مات لم يدفن فيه، لنهيه ﷺ عن ذلك بمثل قوله قبل أن يموت بخمس: «**ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ،فإني أنهاكم عن ذلك** »[(١)]

وعن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ - أي في حالة الاحتضار - طفق يطرح خميصة على وجهه، فإذا اغتم كشفها فقال وهو كذلك: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا**»[(٢)].

كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم**»[(٣)].

وكذا قال عليه الصلاة والسلام: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(٤)].

هذا.. ولما كان الأمر كذلك، فكيف يقال: إنما أفضلية مسجد النبي ﷺ، وأفضلية الصلاة فيه؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - مقبور في مسجده؟! ثم يقاس على ذلك كل مسجد فيه قبر أو ضريح!!

وقد علم أن قبر النبي ﷺ كان في بيته، الذي هو حجرة عائشة - رضي الله عنها - وبجواره دفن صاحباه «أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق رضي الله عنهما»، وتمت توسعة مسجد النبي ﷺ في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وكذا في عهد عثمان - رضي الله عنه - والأمر كذلك، حتى انقضى جيل

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (المساجد/ ٥٣٢/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (المغازي/ ٤٤٤٤/ فتح)، مسلم في (المساجد/ ٥٣١/ عبد الباقي).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود في (المناسك/ ٢٠٤٢) وهو في «صحيح الجامع» (٧٢٢٦).

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٧٣١١) وصححه الشيخ الألباني في «تحذير الساجد» (ص١٨-١٩).

الصحابة، وكانت الدولة الأموية، وأيام «الوليد بن عبد الملك» الذي كان بينه وبين آل البيت خصومات، وأراد أن يشردهم من مساكنهم التي سكنوها في بيوت النبي ﷺ، ففعل ذلك بحجة توسعة المسجد، من الناحية التي بها الحجرات، ومن هنا دخل قبر النبي ﷺ في المسجد، وقد أحدث الوليد بن عبد الملك بهذا حدثًا في الإسلام، أنكره المسلمون، ولكن أمام ظلمه وطغيانه، لم يستطع الناس أن يفعلوا شيئًا، وظل الأمر على هذا الحال إلى يومنا هذا حيث لا يجوز نقل قبر النبي ﷺ لقوله: «**يدفن الأنبياء حيث ماتوا**»[١] ولأنه أفضل قبر على وجه الأرض، ولكن اجتهد أهل السنة في أرض الحجاز في أن يجعلوه في جانب من المسجد قائمًا بذاته، لا يستطيع أحد أن يطوف حوله ولا أن يقبله أو يغالي في تعظيمه، وإنما الزيارة و السلام والدعاء، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) أنظر للأهمية «أحكام الجنائز» للشيخ الألباني (ص١٧٤ ، ١٧٥) ط المعارف الرياضي وتحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد.





الفصل الثاني

أحاديث ظاهرها يوهم التعارض





الفصل الثاني
أحاديث ظاهرها يوهم التعارض

المبحث الأول

أحاديث يوهم ظاهرها التعارض مع القرآن

١ ـ أخرج الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«إن الله مسح صلب آدم عليه السلام فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»**(١)

والآية تقول: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣].

ما وجه التعارض بين الحديث والآية؟

قال: المغرضون أو الذين لا يفهمون الحديث بقول: إن الله مسح على ظهر آدم فأخرج منه ذريته، والآية تقول: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾.

فهذا من وجهة نظرهم تناقض؛ لأن الآية تقول: ﴿ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ والحديث يقول: من ظهر آدم.

فهم توهموا التعارض أو التناقض بين الآية والحديث، وليس الأمر كما ذهبوا

---

(١) بنحوه أخرجه الترمذي في (التفسير/ ٣٠٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (٣٠٧٦).

إليه أو توهموه، فإن الآية كالحديث، وإن الحديث يفسر الآية ولا تعارض.

لأنك إذا قلت ـ كما جاء في الحديث ـ: «**إن الله مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذريته...**»

فهو قد استخرج ذريته، وهو الذي قالته الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾.

فالحديث ذكر أن الله أخرج من ظهر آدم ذريته، والآية ذكرت تتابع الذرية الذين هم من ظهر آدم وصلبه، فأفادت معنى تتابع الذرية جيلاً بعد جيل إلى يوم القيامة، وليست ذرية واحدة لآدم، أو جيلاً واحدًا؛ وإنما هو تتابع الذرية، وكل ذلك في عالم الذر أو الأرواح، فشهد الأبناء، وأبناء الأبناء إلى يوم القيامة، فلا نرى تعارضًا بين الآية والحديث إطلاقًا، لمن تدبر المعنى، ولم يقف عند ظاهر اللفظ؛ لأنه بدل بعض من كل، أو بدل اشتمال وهو أحسن.

سيما وأن العهد مأخوذ على بني آدم، لا على آدم، فلذلك لما مسح الله ظهر آدم أخرج منه ذريته في عالم الأرواح إلى يوم القيامة، ثم أشهدهم على أنفسهم﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وهذا الإقرار أو الميثاق هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، التوحيد الذي خلقهم عليه، كما جاء في الحديث القدسي «**إني خلقت عبادي كلهم حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[1] وكما في الحديث النبوي: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[2].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (الجنة/ ٢٨٦٥/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الجنائز/ ١٣٥٨/ فتح)، مسلم في (القدر/ ٢٦٥٨/ عبد الباقي).

٢ ـ عن جرير بن عبد الله البجلي قال ﷺ: «**إنكم سترون ربكم عيانًا، كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته ....**»[1] قالوا: كيف يكون هذا مع قول الله تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وكيف نراه كالقمر مع أن الله يقول: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١].

وكيف يمكن لنا أن نراه، وقد قال الله تعالى لموسى: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾ حين طلب رؤيته، فقال سبحانه: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فكيف الجمع بين هذه الأدلة من الآيات والحديث؟

نقول ـ وبالله التوفيق ـ: ليس الأمر كما توهموا، وقد وقعوا في الخلط بين الإدراك والرؤية، وبين الرؤية الممنوعة في الدنيا، والجائزة في الآخرة، وخلطوا في التشبيه بين الرؤية والمرئي!!

وتفصيل ذلك: أن رؤية الله ـ تعالى ـ في الدنيا غير ممكنة وغير متحققة، لما عليه الإنسان من عجز وضعف عن رؤية الله تعالى، حتى ولو كان نبيًا قويًا كموسى عليه السلام، ومهما أوتي موسى من القوة، فما هو قياسًا إلى الجبل الشامخ الراسخ الذي دُك حين تجلى الله ـ عز وجل ـ عليه، مع أن الجبل جماد، فكيف بالإنسان ﴿**وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٢٨].

ولذلك فرؤية الله ـ تعالى ـ غير كائنة في الدنيا ولا ممكنة، ولم تقع لأحد من الخلق، على الرغم من الخلاف الذي وقع في أمر النبي محمد ﷺ ليلة

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (المواقيت/ ٥٥٤/ فتح)، مسلم في (المساجد/ ٦١٣/ عبد الباقي).

الإسراء والمعراج، هل رأى ربه أم لا؟ والراجح أنه لم يره، لحديث: «**نور أنى أراه؟**»[(١)] ولحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «من زعم أن محمداً ﷺ قد رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»[(٢)].

وكذلك الأمر بالنسبة للآية ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الانعام: ١٠٣].

نقول: لا يستطيع أحد إدراك الله - تعالى - والإحاطة به، فالإدراك شيء، والرؤية شيء آخر، وهذا الإدراك مستحيل في حق الله تعالى.

وأما رؤية الله - تعالى - في الآخرة فهي كائنة وممكنة وجائزة بدليل قوله تعالى: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**﴾ [يونس: ٢٦] والحسنى هي الجنة، والزيادة هي رؤية الله تعالى، كما قاله جمع من المفسرين:

وقوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وهذا الحديث: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون - لا تضارون - في رؤيته**» والتشبيه هنا تشبيه رؤية برؤية، أي: وضوح الرؤية كوضوح البدر في تمامه ليس عليه غمامة ولا سحابة، وليس تشبيه مرئي بمرئي، فالله سبحانه كما قال وأخبر ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ وهذه الرؤية لأهل الإيمان، وأهل الجنة، وأما الكفار وأهل النار ﴿**كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ [المطففين: ١٥].

* * *

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (الإيمان/ ١٧٨/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (بدء الخلق/ ٣٢٣٤/ فتح)، مسلم في (الإيمان/ ١٧٧/ عبد الباقي).

٣ ـ جاء في الحديث أن النبي ﷺ وقف على قليب بدر ـ أي: البئر الذي ألقي فيه القتلى ـ فنادى عليهم وقال: «**يا عتبة، يا شيبة، يا فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا**، فقالوا: يا رسول الله، أيسمعون؟ فقال: **ما أنتم بأسمع منهم**» ـ وفي رواية ـ «**إنهم ليسمعون كما تسمعون**»[1].

قالوا: كيف يصح هذا الحديث مع أن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر: ٢٢]. ويقول: ﴿**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ**﴾ [النمل: ٨٠].

وكيف يتفق هذا مع ذاك؟

والإجابة على هذا: أن الحديث صحيح، وأن الحديث كما هو على ظاهره، وأن الموتى يسمعون، ولكنهم لا يستطيعون جوابًا، ولا نسمع نحن الأحياء جوابهم: ﴿**إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ**﴾.

وأما الآيتان فقد جاءتا على سبيل التشبيه والكناية، فهما تشبيه للكافرين والمشركين بالأموات من أهل القبور، الذين لا يرجى منهم شيء، فكما لا يرجى من الأموات شيء، فلا ترجو ـ يا محمد ـ من الكفار شيئًا، فإنك تتمنى هدايتهم، ولكنهم صموا آذانهم عن الحق وأغمضوا أعينهم عن الهدى، فلا يريدون رؤية هدى، ولا سماع حق، ولا معرفة السبيل، فهم كالأموات، تدعوهم فلا يجيبون، فهو تشبيه بالأموات، والكفار موتى بكفرهم ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**...﴾ [الأعراف: ١٢٢] فهذا حال الكفار كحال أهل القبور.

وكذا السياق الذي جاءت فيه تلك الآية، وهو قول الله تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (المغازي/ ٣٩٧٦/ فتح)، مسلم في (الجنة/ ٢٨٧٣ ـ ٢٨٧٥/ عبدالباقي).

قد جاء في تفسيرها ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ أي: الكافر والمؤمن، فالكافر هو الأعمى، والمؤمن هو البصير.

﴿ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴾ الظلمات هي الكفر، والنور هو الإيمان.

﴿ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴾ الظل هو الجنة، والحرور هو النار.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ ﴾ الأحياء أهل الإيمان، والأموات هم أهل الكفر.

ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ أي: الكفار ولكن أهل القبور يسمعون ويحسون، ويتنعمون في قبورهم، ويعذبون، والشهداء منهم يستبشرون ويفرحون، وفرعون وقومه ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] وقوم نوح: ﴿ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ [نوح: ٢٥].

وأناس هذا حالهم كيف لا يحسون؟ وكيف لا يسمعون؟ بل يسمعون ويحسون، كما جاء في الحديث الذي لا تنافي بينه وبين الآية، عند فهمها الصحيح.

* * *

٤ ـ قال ﷺ: «**إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه**»(١).

كيف يتفق هذا مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

نقول: إن الآية الكريمة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فهي وإن كانت كذلك، إلا أنها ليست قانونًا عامًّا، أو حكمًا دائمًا؛ لأنه جاء في القرآن الكريم أيضًا ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وفي الحديث «يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»(٢) فإذا كثر الخبث ـ وقد كثر في زماننا ـ فيهلك الصالحون بهلاك المفسدين، ثم يبعثون على نياتهم، ويحاسبهم الله على أعمالهم، ويأتي العذاب على المشركين وفيهم أطفالهم الأبرياء فيهلكون بهلاك آبائهم المشركين، كما تهلك الدواب مع هلكة عصاة البشر وهذا من باب ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

والحديث الذي نحن بصدده: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**» معناه كالآتي:

تذكر كلمة «الميت» وتفسر بالكافر، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ فالأحياء هم أهل الإيمان، والأموات هم أهل الكفر، ومعناه أن الكافر معذب بكفره، وقد يزاد له في العذاب ببكاء أهله عليه؛ لأنه لا إيمان لهم يردعهم، كما في الحديث: «**ثنتان في أمتي من الكفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**»(٣) فهذا شأن أهل الكفر والجاهلية، كما قال ﷺ: «**ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»(٤).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الجنائز/ ١٢٩٠/ فتح)، مسلم في (الجنائز/ ٩٢٧/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء/ ٣٣٤٦/ فتح)، مسلم في (الفتن/ ٢٨٨٠/ عبدالباقي).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم في (الإيمان/ ٦٧/ عبد الباقي).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الجنائز/ ١٢٩٤/ فتح) مسلم في (الإيمان/ ١٠٣/ عبد الباقي).

وإما أن كلمة «الميت» عامة، فتشمل المسلم والكافر، فإذا أريد بها المسلم فيكون معناها أن من مات من المسلمين ورضي ببكاء أهله عليه، أو أمر به، ووصى به، كما يفعله الجاهلون إلى زماننا هذا، فيوصي بمناحة عظيمة حتى يعرف الناس قدره بعد موته، وأن يكون عند موته كذا وكذا، فهذا لا شك أنه معذب على فعله هذا ورضاه ببكاء أهله وتوصيتهم بذلك.

وإما أنه مسلم لا يرضى بهذا، ولم يأمر به، بل حذر منه ونهى عنه، وكتب في وصيته البراءة من ذلك فلا يكون هذا داخلاً في هذا الحديث، وإن دخل فيه فبوجه واحد، وهو العذاب المعنوي، أو التأذي، كمن يقول لآخر: بكاؤك يؤذيني، أو بكاؤك يعذبني، تقوله الأم لولدها إذا اشتكى وهي لا تعلم ما به من علة، فتتعذب لألمه، وتبكي لبكائه.

فهذا على أقصى تقدير، وإلا فالحديث فيمن رضي بذلك، كما أنه في الكفار، كما فهمته السيدة عائشة رضي الله عنها حين سمعته من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقوله، فقالت: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، أما إنه لم يكذب، ولكنه نسي أو أخطأ، إنما مر رسول الله ﷺ بيهودية يبكي عليها أهلها، فقال: «**إنكم لتبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها**» والله أعلم.

* * *

٥ ـ قال ﷺ: «**لا وصية لوارث**»(١).

في حين قال الله تعالىٰ: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: ١٨٠].

فالآية تأمر بالوصية للوالدين والأقربين، والحديث يقول: «**لا وصية لوارث**» والوالدان يرثان علىٰ كل حال، ولا يحجبان بحال، فكيف يتفق هذا مع ذاك؟

نقول: إن هذه الآية الكريمة نزلت قبل أن تنزل أحكام المواريث، وفيه الوصية للوالدين والأقربين، كما كان ذلك بين المؤمنين وبعضهم البعض، حتىٰ نزل قول الله تعالىٰ: ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الأحزاب: ٦].

وهنا بقي حكم هذه الآية ساريًا حتىٰ نزلت أحكام المواريث، وحدَّ الله ـ عز وجل ـ له أنصبة، فهنا أعلن النبي ﷺ هذا الحديث: «**لا وصية لوارث**» فيكون هذا الحديث ناسخًا للآية الكريمة، أو تصبح الآية منسوخة بنزول آيات المواريث.

حيث كان يؤمر الولد بأن يوصي لوالديه ولأقاربه، حتىٰ أنزل الله ـ عز وجل ـ حكم الميراث في آيات المواريث، وحدد لكل وارث نصابه، وبين أن الميراث حد من حدود الله، حيث أردف آيات المواريث بقوله تعالىٰ: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [النساء: ١٣ ـ ١٤].

---

(١) **صحيح**: رواه الخمسة عن طائفة من الصحابة رضي الله عنهم وهو في «صحيح الجامع» (١٧٢٠ ـ ١٧٨٨ ـ ١٧٨٩ ـ ١٧٩٤ ـ ٧٥٧٠).

فبعد أن حد الله - عز وجل - تلك الحدود، وبين ما للوالدين من الميراث، وما للأقربين من الميراث، فلا يحق لأحد أن يزيد على ما حده الله ولا أن ينقص مما قدره الله، ومن ثم جاء حديث النبي ﷺ يحدد هذا المعنى ويؤكده، فيقول: «**لا وصية لوارث**».

وبهذا نعلم أنه لا تعارض بين الآية والحديث.

* * *

٦ ـ قال ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة».[١]

قالوا: كيف يتفق هذا مع قول الله ـ جل وعلا ـ في قصة زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦] .

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦] .

فهذا زكريا ـ عليه السلام ـ يطلب من الله عز وجل أن يرزقه الولد، الذي يرثه، كما أن سليمان ورث داود، فكيف الأنبياء لا يورثون؟ ولماذا اختلفت «فاطمة بنت النبي محمد ﷺ» مع «أبي بكر الصديق رضي الله عنه» على ميراث أبيها، صلوات ربي وسلامه عليه؟

فكيف يتفق هذا مع ذاك؟

والجواب: ليس الأمر كما ذهبوا إليه، ذلك لأن الآية الكريمة في دعاء زكريا ـ عليه السلام ـ وهو يطلب من الله ـ عز وجل ـ غلامًا يرثه ويرث من آل يعقوب، ما أراد بذلك أن يرث مالاً، ذلك؛ لأنه إن ورث مالاً من زكريا، فكيف يرث من آل يعقوب؟!

وهل كان المال معظمًا عند زكريا لهذا الحد من أجل أن يطلب من الله ـ عز وجل ـ ولدًا يرث المال فلا يأخذه أحد من بني إسرائيل؟

وقد ثبت أيضًا أن زكريا ـ عليه السلام ـ لم يكن له مال ألبتة، بل كان صاحب صنعة، يعمل نجارًا، فحيثما وجد عملاً وجد ما يأكل، وحيث لا يجد عملاً لا يجد ما يأكله، فأين المال الذي سيورثه؟! ولذلك لم تكن الدعوة مبنية على إرث المال؛ وإنما أراد ولدًا يرث عنه العلم والنبوة، فقد كان زكريا حبرًا في

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (فرض الخمس/ ٣٠٩٣/ فتح)، مسلم في (الجهاد/ ١٧٥٩/ عبدالباقي).

العلم، فأراد أن يمنح تلك الحبورة لولده من بعده.

وأما الآية الكريمة ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ فلم يكن مالاً أيضًا، ولكنه ورث ملكًا ونبوة، والملك جاه وسلطان، ولا يشترط أن يكون مالاً، والمال يأتي تبعًا لهذا الجاه والسلطان.

فالإرث الذي ورثه «سليمان» عن أبيه «داود» إنما هي النبوة ثم الملك، فكلاهما كان نبيًا ملكًا. إذن «الأنبياء لا تورث» كما في الحديث «**إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة**».

وأما نزاع فاطمة -رضي الله عنها- مع أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- على ميراث أبيها، الذي لم تأخذ منه شيئًا، فعز ذلك عليها حين أخذ أبو بكر كل شيء باسم الخلة والصداقة التي كانت بينه وبين النبي ﷺ، فلم تكن تعلم بهذا الحديث، وحين ذكر لها انتهى الخلاف، وحسم النزاع، ولله الحمد فلا تناقض -بفضل الله- بين شيء مما ذكر من الآيات والحديث.

* * *

٧ ـ أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة، وزيد بن خالد الجهني - رضي الله عنهما ـ قالا: كنا عند النبي ﷺ فقام رجل، فقال: أنشدك الله إلا ما قضيت بيننا بكتاب الله، فقام خصمه ـ وكان أفقه منه ـ فقال: اقض بيننا بكتاب الله، وائذن لي، قال: قل، قال: إن ابني هذا كان عسيفا على هذا ـ خادمًا عنده ـ فزنى بامرأته، فافتديت منه بمائة شاة وخادم، ثم سألت رجالاً من أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وعلى امرأته الرجم، فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله جل ذكره، المائة شاة والخادم رد، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها**» فغدا عليها فاعترفت فرجمها»[1].

والشبهة عندهم: كيف يقول النبي ﷺ: «**لأقضين بينكما بكتاب الله**»، وليس في كتاب الله حكم الرجم، ولا التغريب؟

والجواب من وجوه:

أولاً: كلمة «: كتاب الله» ترد بعدة معانٍ ووجوه.

فهي بمعنى «بحكم الله» كما هنا في الحديث، وكما في قوله تعالى: ﴿**كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾ أي حكم الله عليكم.

وتأتي بمعنى «الفرض» فإذا قال الله ﴿**كتب عَلَيْكُمْ...**﴾ بمعنى فرض عليكم.

ثم هي بمعنى: «القرآن» فكتاب الله هو القرآن ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [النساء: ١١٣].

ثانيًا: إن القضاء بحكم الله يكون بكتاب الله، كما يكون بسنة رسول الله ﷺ؛ لأن السنة هي المفسرة للقرآن، كما قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٤٤].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الحدود/ ٦٨٢٨/ فتح)، مسلم في (الحدود/ ١٦٩٨/ عبد الباقي).

فحكم الله - تعالىٰ - ما لم يرد صراحة في القرآن كان تلميحًا، ويجيء في السنة تصريحًا، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ثالثًا: من قال: إن الرجم ليس في كتاب الله وقد نزلت آية الرجم، ثم نسخت لفظًا، ولم تنسخ حكمًا كما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو جالس علىٰ منبر رسول الله ﷺ: «إن الله قد بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها وعقلناها» «**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة...**» فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشىٰ إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق علىٰ من زنىٰ إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف»[(١)].

وأما أمر التغريب مع الجلد فقد عمل به ﷺ حينًا، وتركه حينًا آخر، وهو حسب رؤية الإمام الذي يعذر الجاني أو المتهم، إن رأىٰ أن صلاحه وتوبته تقتضي التغريب والبعد عن مكان الجريمة أمر به، وإلا فلا، ولو لم يرد التغريب في كتاب الله، فيكفي أن يجيء في سنة رسول الله ﷺ؛ لأنها هي المفسرة لكتاب الله، وبذلك يتضح أنه لا تناقض ولا تعارض بفضل الله تعالىٰ.

* * *

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الحدود/ ٦٨٢٩/ فتح)، مسلم في (الحدود/ ١٦٩١/ عبد الباقي).

٨ ـ قال ﷺ: «**لا تنكح المرأة على عمتها ولا خالتها**»[١].

وقال ﷺ: «**يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب**»[٢].

قالوا: والقرآن الكريم لم يحرم عمة الزوجة ولا خالتها، كما لم يحرم من الرضاعة إلا الأم والأخت، فما ذكر في الحديثين لم يرد في القرآن في آية المحرمات: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [النساء: ٢٣]

والجواب على ذلك: وما الضير في هذا؟ في أن تجيء أحكام في سنة النبي ﷺ لم يصرح بها في القرآن، والسنة وحي من بعد وحي القرآن، وهي التبيان والتفسير والتوضيح. فالسنة فيها بيان ما أجمل، وتوضيح ما أشكل، وذكر ما سكت عنه القرآن، والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي قال: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ**﴾ [النجم: ١-٦].

فالسنة وحي يوحى، وجبريل ـ عليه السلام ـ كان يعلم النبي ﷺ السنة، ويلهمه إياها فينطق بالحكمة كما كان يقول ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**»[٣].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (النكاح/ ٥١١١/ فتح). مسلم في (النكاح/ ١٤٠٨/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الأدب/ ٦١٥٦/ فتح)، مسلم في (الرضاع/ ١٤٤٥/ عبد الباقي).

(٣) **صحيح**: رواه أبو نعيم والطبراني وابن أبي الدنيا والحاكم والبيهقي عن أبي أمامة رضي الله عنه وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٨٥).

وقد بين القرآن الكريم أن السنة عبارة عن تفسير وبيان للقرآن؛ بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وهذا البيان فيه تفصيل ما أجمل كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] فتتولى السنة التفصيل بمثل قوله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[١] وكذا «**خذوا عني مناسككم**»[٢].

ويقال هذا في بقية العبادات أو النسك كالصيام والحج.

كما تأتي السنة موضحة لما أشكل، في مثل قول الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] في تحديد اليد، ومكان القطع، وكيفيته، ونحو ذلك.

وكذلك في السنة ذكر ما سكت عنه القرآن من نحو تحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وكذلك تعميم المحرمات في الرضاعة كالمحرمات في النسب، وكذا تحريم الذهب والحرير على الرجال دون النساء وغير ذلك، مما جاء أصله في كتاب الله - تعالى - لمن فقه وفهم ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤] وغير ذلك من الأدلة.

وقد حذر النبي ﷺ من مثل هذا الصنف بقوله: «**يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته، يقول ما وجدنا في كتاب الله من حلال استحللناه، وما وجدنا في كتاب الله من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**»[٣].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الأذان/ ٦٣١/ فتح).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (الحج/ ١٢٩٧/ عبد الباقي).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود في (السنة/ ٤٦٠٤)، الترمذي في (العلم/ ٢٦٦٤)، ابن ماجه في (المقدمة/ ١٢)، من حديث المقدام رضي الله عنه وهو في «صحيح الجامع» (٢٦٤٣-٢٦٥٧).

٩ـ قال رسول الله ﷺ: «**صلة الرحم تزيد في العمر**»[١].

والله ـ تعالىٰ ـ يقول: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٤].

والإشكال واضح، فالآية تبيّن أنه لا زيادة في العمر ولا نقصان، ولا تقديم ولا تأخير، والحديث ذكر زيادة العمر مع صلة الرحم، فكيف ذلك؟

والإجابة علىٰ ذلك: بأن كلمة «الزيادة» ترد بمعنىٰ «البركة» أي: البركة في العمر فالعمر واحد، ولكن يبارك في قليله، ويتسع رزقه، ويبارك في صحته.

فتكون الزيادة بمعنىٰ البركة وسعة الرزق والعافية في البدن، فهذا هو المتبادر من الحديث، وقيل أيضًا: قد تكون كلمة الزيادة بمنطوقها أو بحرفيتها، فيزاد في العمر بصلة الرحم، ويكون ذلك في علم الله تعالىٰ، بأن فلانًا بن فلان يكون عمره خمسين سنة مثلاً، فإذا وصل رحمه كان سبعين مثلاً، ويكون هذا في علم الله ولا يطلع عليه إلا الله، وهنا أشار النبي ﷺ إلىٰ هذا المعنىٰ الذي هو في علم الله بهذا الحديث: «**صلة الرحم تزيد في العمر**» وهذا كلام محتمل: والله أعلم.

* * *

(١) **صحيح**: هذا اللفظ انظره في «صحيح الجامع» (٣٧٦٠-٣٧٦٦-٣٧٦٧-٣٧٩٦-٣٧٩٧) وهو بنحوه في «الصحيحين».

١٠ - قال ﷺ: «**الصدقة تدفع القضاء المبرم**»[1].

مع أن الله - عز وجل - يقول: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [النحل: ٤٠].

فكيف ترد الصدقة القضاء المبرم مع أن الله - عز وجل - لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه؟

نقول: جاء في تفسير هذا الحديث أن القضاء المبرم هنا بمعنى العقوبة المؤكدة، فالمرء قد يستحق بالذنوب قضاء من الله عز وجل بعقوبته، فإذا تصدق دفع ذلك عن نفسه؛ لأن القضاء بني على غضب من الله عز وجل لفعل العبد ذنبًا من الذنوب، فإذا تصدق العبد صدقة لاسيما إذا كانت في السر، والنبي ﷺ يقول: «**صدقة السر تطفئ غضب الرب**»[2].

والعقاب يكون بسبب غضب الله تعالى، فإذا زال الغضب بسبب الصدقة زالت العقوبة كذلك بفضل الله جل وعلا، وهذا هو معنى الحديث: «**الصدقة تدفع القضاء المبرم**»[2].

* * *

---

(١) لم أقف على هذا اللفظ، وبنحوه في «ضعيف الجامع» (١١٠٢) بلفظ: «أكثر من الدعاء، فإن الدعاء يرد القضاء المبرم». وبنحو اللفظ المذكور في «ضعيف الجامع» (٢٧٢٢).

(٢) **صحيح**: وهو في «صحيح الجامع» (٣٧٥٩-٣٧٦٠-٣٧٦٦-٣٧٩٧-٤٠٥٢).

١١ ـ قال ﷺ: **«أعطي يوسف ـ عليه السلام ـ شطر الحسن»**[١]. وفي رواية: **«أعطي يوسف مع أمه «سارة» نصف الحسن»**.

في حين قال الله تعالى عنه: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

فهل يمكن لشاب يعطى نصف الحسن، فيباع مزهودًا فيه بدراهم معدودة؟!

كما قالوا أيضًا: وكيف لا يعرفه إخوته حين قدموا عليه: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

فهل من أوتي نصف الحسن يكون نكرة لإخوته، وهو الذي ينبغي أن يكون معلومًا للجميع؟

قالوا: فكيف يتفق هذا مع ذاك؟

نقول: ومكمن الخطأ في هذا أن القوم فهموا حديث النبي ﷺ: **«أعطي يوسف نصف الحسن»**.

على أن الحسن شطران، شطر أخذه يوسف، وشطر أخذه العالم بأسره، وهذا هو مكمن الخطأ في فهم الحديث؛ لأنه لو كان كذلك، فكيف يكون جماله؟!

لكن الأمر لا يعدو إلاَّ أن يكون الجمال له نسبة، وله مقدار، وأن الله ـ عز وجل ـ جعل ليوسف نصف تلك النسبة أو ذلك المقدار، في الوقت الذي جعل لغيره ربع هذه النسبة، أو ثلثها أو عشرها أو سدسها أو أقل أو أكثر.

فالبشر يتفاوتون في نسبة الجمال، لكن يوسف ـ عليه السلام ـ نال قسطًا أوفر.

وليس معناه أنه نال شطر الحسن وحده، والعالم نال الشطر الآخر، فهذا

---

(١) صحيح: الرواية الأولى أخرجها مسلم في (الإيمان/ ١٦٢/ عبد الباقي)، والرواية الثانية في «صحيح الجامع» (١٠٦٣).

ليس واردًا في الحديث، ومثل الجمال تكون الشجاعة أيضًا بنسب، ولو أن إنسانًا أعطي نصف الشجاعة، فهل معناه يمكن أن يقاتل نصف العالم وحده؟! لا. ليس هذا مرادًا.

ومع ذلك فقد كان يوسف على قدر كبير من الجمال جعل النسوة لما ﴿رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] أي: لما استقر في أذهانهن من أن الملائكة على قدر كبير من الحسن والجمال.

وهذا لا ينافي أن يباع يوسف وهو صغير بثمن بخس، ويزهد فيه من يشتريه، على الرغم من نضرته وحسنه؛ لأنه بيع عبدًا رقيقًا، وقد تظاهر الذي اشتراه بأنه لا يرغب فيه، على الرغم أنه يتمناه ولكن هذا يحدث عند بعض الناس عند شراء ما يريد حتى لا يغالي الطرف الآخر في الثمن.

وقيل: إن الذين زهدوا فيه إنما هم إخوته الذين أرادوا التخلص منه بعد إلقائه في غيابة الجب حتى لا يعود إليهم مرة أخرى، ولم يريدوا كثيرًا من الثمن حتى لا يكتشف أمرهم عند أبيهم بوجود المال معهم، وأيما كان الأمر، فلا نرى تعارضًا بين الحديث والآيات، لمن أحسن الفهم، وفقه الأمر على حقيقته والحديث بمعناه، والله الموفق، لا رب سواه.

* * *

١٢ ـ قال ﷺ: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»[١].

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

قال المتفلسفون: كيف يصح هذا؟ كيف تكون الجنة في السموات، والمسجد في الأرض ويكون روضة من رياض الجنة فيما بين البيت والمنبر؟ وكيف تكون الجنة بهذه السعة ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وهذه الروضة لا تعدو إلا أن تكون محددة بأمتار معدودة؟!

نقول: وهذا الكلام يدل على جهل قائله، حيث لم يفرق بين الحقيقة والتشبيه أو الكناية، والاستعارة فالحديث فيه تشبيه الجزء المشار إليه بأنه روضة من رياض الجنة، وليس معناه أنه جزء من الجنة، حتى ينفي وقوع هذا باتساع الجنة، وبارتفاعها!

وهذا معروف في اللغة العربية، كما هو كثير في كلام النبي ﷺ، كقوله ﷺ ـ عن مجالس الذكر ـ «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**»[٢] وكقوله ﷺ: «**الجنة تحت ظلال السيوف**»[٣] فماذا يفهم من هذا؟ هل تنتقل الجنة بانتقال مجالس الذكر أو العلم؟ وهل أصبحت تحت ظلال السيوف، وعند أقدام المجاهدين؟ وفي الحديث أيضًا «ما قاله ﷺ للرجل الذي جاء يستأذن في الجهاد، وقد ترك أمه بغير عائل، فقال له ﷺ: «**إلزم رجلها، فثم الجنة**»[٤]. إلى غير ذلك.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الجمعة/ ١١٩٦/ فتح)، مسلم في (الحج/ ١٣٩١/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي في (الدعوات/ ٣٥٠٩ ـ ٣٥١٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي».

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الجهاد/ ٢٨١٩/ فتح)، مسلم في (الجهاد/ ١٧٤٢/ عبد الباقي).

(٤) **حسن**: أخرجه النسائي في (الجهاد/ ٣١٠٤/ أبو غدة) وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٤٩).

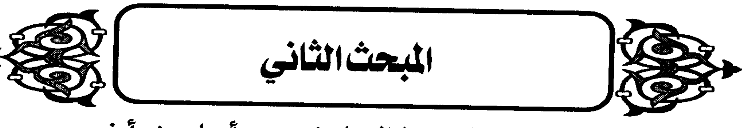
فهذه أساليب بلاغية معروفة، يعرفها أهل اللغة، وتكلم بها خير من أوتي جوامع الكلم، ﷺ، ولكن لا يعرفها أهل البلادة والغباء، حتى تخيلوا تخيلاتهم الغريبة، وظنوا التعارض بين الحديث والآية، فأين هذا؟

وإشارة أخيرة، إذن الحديث صحته **«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»**.

وليس **«ما بين قبري ومنبري...»** الذي هو مشهور عند الصوفية ونحوهم.

وذلك لأنه لا يعقل أن النبي ﷺ يقول في حياته: **«ما بين قبري...»** بل قال: **«ما بين بيتي...»** ولم يصح قولهم **«ما بين قبري...»**.

* * *



المبحث الثاني

أحاديث يوهم ظاهرها التعارض مع أحاديث أخرى

إذا رجعنا إلىٰ كتب الفقه - مثلاً - وجدنا أحاديث في «كتاب الطهارة» توهم التناقض:

١ - وذلك مثل قول النبي ﷺ: «**من مس ذكره فليتوضأ**» وفي رواية: «**من مس ذكره فلا يصل حتى يتوضأ**»[١] وهو حديث بسرة رضي الله عنها، مع حديث آخر رواه طلق رضي الله عنه قال: جاء رجل فسأل النبي ﷺ عمن مس ذكره، أيتوضأ؟ فقال: «**إنما هو بضعة منك**»[٢].

فكيف ذلك؟ ولذلك نجد الفقهاء منهم من قال بأن مس الذكر ينقض الوضوء - للحديث الأول، ومن قال: إنه لاينقض الوضوء، للحديث الثاني، قال بالأول الشافعية، وبالثاني الأحناف علىٰ سبيل المثال.

وبيان ذلك: أنه قد علم في الدين أمر «الناسخ والمنسوخ» سواء أكان في القرآن أم في السنة، فالمتأخر ينسخ المتقدم، وحديث طلق منسوخ بحديث بسرة.

أي: حديث «**إنما هو بضعة منك**» منسوخ بحديث: «**من مس ذكره فليتوضأ**» ويكون هذا الحديث هو الذي عليه العمل، وإن جهله من جهله.

هذا، وقد حاول بعض العلماء الجمع بين الحديثين، واستبعاد النسخ، فرأىٰ أن حديث «**من مس ذكره فليتوضأ**» يكون علىٰ سبيل التمكن، والمس بمجمع

---

(١) **صحيح**: رواه الخمسة، وهو في «صحيح الجامع»(٦٥٥٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود في (الطهارة/ ١٨٢)، والترمذي في (الطهارة/ ٨٥)، والنسائي في (الطهارة/ ١٦٥/ أبو غدة) ، وابن ماجة في (الطهارة/ ٤٨٣).

اليد، وبباطن الكف، وربما أورث ذلك شهوة، فيكون هذا فيه الوضوء، ولا شك.

وأما حديث: «**إنما هو بضعة منك**» فقد قاله النبي ﷺ لرجل كبير في السن، إذا مس ذكره كان ذلك بغير قصد، أو بغير شهوة، فلا ينتقض وضوءه.

ومثل هذا الجمع مقبول؛ لأنه ينبغي التفرقة في الفتوىٰ بين مس ومس، وكذا بين سن وسن، فليس من قصد كمن لم يقصد، وليس الشباب كالشيوخ. والله أعلم.

* * *

٢ ـ حديث «نهى النبي ﷺ أن يبول الرجل قائمًا»[١] وكذلك ورد «ما بال النبي ﷺ قائمًا» مع حديث حذيفة رضي الله عنه يقول: «رأيت النبي ﷺ أتى سباطة قوم فبال قائمًا»[٢].

فأصبح التبول قائمًا منهيًا عنه ـ بالحديثين الأُول، ومباحًا بالحديث الأخير، والأحاديث توهم التعارض.

وليس الأمر كذلك؛ لأن دأب النبي ﷺ أنه ما كان يبول إلا جالسًا، وكما قالت عائشة رضي الله عنها: «من حدثكم أن النبي ﷺ بال قائمًا فلا تصدقوه، ما كان ﷺ يبول إلا جالسًا»[٣] فهذا الذي عليه العمل.

وأما حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ فقد ذكر فيه أن النبي ﷺ أتى سباطة قوم ـ وهو المكان الذي تجمع فيه سباط النخل، فيستر من وقف خلفه، دون أن يستطيع الجلوس عليه، ولذلك لما تعذر الجلوس على النبي ﷺ بال قائمًا، فبوله قائمًا لضرورة، إذا بال مرة قائمًا لما تعذر الجلوس عليه، فلا يكون ذلك تعارضًا مع الأحاديث الأخرى التي تنهى عن القيام؛ وإنما يكون ذلك من باب التشريع عند وجود الضرورة، وكما قيل: «الضرورات تبيح المحظورات» وهو أمر مقرر في الشريعة، فلا تعارض ـ بحمد الله تعالى.

* * *

---

(١) ضعيف جدًا: كما في «ضعيف الجامع» (٦٠٠٦).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في (الوضوء/ ٢٢٤/ فتح)، ومسلم في (الطهارة/ ٢٧٣/ عبد الباقي).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي في (الطهارة/ ١٢)، والنسائي في (الطهارة/ ٢٩/ أبو غدة)، وابن ماجة في (الطهارة/ ٣٠٧).

٣ ـ ومثل ذلك: حديث النبي ﷺ في النهي عن الشرب قائمًا، وأنه قال: «من شرب قائمًا فليستقئ»[١] وأنه ﷺ ما شرب قائمًا، وذلك مع حديث دل على أن النبي ﷺ شرب قائمًا من ماء زمزم[٢].

وهذا أيضًا كسابقه في الحكم، حيث كان دأب النبي ﷺ الشرب من جلوس، وبذلك أمر، ونهى عن الشرب قائمًا، ولكنه لما تعذر عليه ﷺ الشرب جالسًا عند بئر زمزم، أو أراد ﷺ ألا يشق على الناس في هذا المكان مع الزحام الشديد ـ أي عند البئر ـ أو كان يريد ﷺ أن يراه الناس، وأن يعلموا أن من نسكه ـ لمن أراد الحج والعمرة ـ أن يشرب من ماء زمزم، ولو راح النبي ﷺ يشرب آنذاك جالسًا، فلا يراه الناس، وكذا لو شرب جالسًا، وأصحابه يتسابقون على سنته ﷺ، فمع الجلوس عند البئر ـ وهذا الزحام ـ ربما كان في ذلك هلاك الناس، فكيف برجل جلس للشرب، ثم تكاثر الناس على الماء، ولم يدر أحد بجلوسه.

وكل من ذهب إلى بيت الله الحرام، في حج أو عمرة، يدرك هذا الأمر جليًا، فكيف والحال الآن قد تغير من البئر إلى الصنابير التي لا تكاد تُعدّ، ومع ذلك فالزحام عند زمزم يموت فيه من يموت:

فصلى الله على سيدنا محمد الذي رفع الحرج عن أمته، ويسَّر عليهم، وكان رحمة مهداة، صلوات ربي وسلامه عليه!

* * *

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (الأشربة/ ٢٠٢٦/ عبد الباقي).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (الأشربة/ ٢٠٢٧/ عبد الباقي).

٤ ـ قال ﷺ: «**لا تستقبلوا القبلة بغائط ولا بول**»[(١)].

في حين أنه ورد أنه ذكر لرسول الله ﷺ أن قومًا يكرهون أن يستقبلوا القبلة بغائط أو بول، فأمر ﷺ بذَنُوب من ماء، فقضىٰ حاجته، فاستقبل بها القبلة وكذا ثبت في صحيح البخاري عن ابن عمر أنه قال رقيت يومًا بيت حفصة فرأيت رسول الله علىٰ حاجته ستقبل الشام مستدبر الكعبة.

فكيف ذلك؟ ينهىٰ عن استقبال القبلة بالبول والغائط، ثم يفعل خلاف ما قاله!!

والجواب علىٰ ذلك: أفاد بعض العلماء أن فعله ﷺ كان ناسخًا لنهيه.

وكون القوم كانوا يكرهون استقبال القبلة بالبول والغائط، بناء علىٰ ما علموه منه ﷺ، فلما خالف هذا دل علىٰ إباحة هذا الفعل، بنسخ النهي الأول، وهذا علىٰ سبيل الاحتمال.

والأرجح من ذلك أن النبي ﷺ إنما نهىٰ عن استقبال القبلة ببول أو غائط في الصحراء أو الخلاء، والأماكن غير المبنية، أو المكشوفة، فهذا يستطيع أن يتجه كما يشاء فلا يستقبل القبلة إذن ولا يستدبرها أيضًا، وإنما يشرق أو يغرب.

وكذا كان حال العرب قديمًا قبل أن يتخذوا الكنف «الحمامات» في بيوتهم.

وسنته أيضًا أن يتجنب طريق الناس وأماكن جلوسهم، وأن يستتر، ويبتعد حتىٰ لا يسمع له صوت ولا تشم له رائحة، ولا ترىٰ له عورة. فهذا في الأماكن المفتوحة والمكشوفة.

ولكن يباح ـ فلا يكره ـ أن يستقبل القبلة أو أن يستدبرها إذا كان في بنيان من وراء الجدران، فما دام هناك حائط أو جدار، فهو يستقبله أو يستدبره، ولا يكون استقبالاً للقبلة أو استدبارًا، وهنا لا نهي ولا كراهة، ويكون فعله ﷺ قد دل علىٰ ذلك، أي ما دام في البيوت، وفعله ﷺ ـ الذي ورد فيه الحديث ـ كان في بيته.

إذن النهي في الصحراء، والإباحة في البيوت، فلا تعارض ـ بفضل الله ولا تناقض بحمد الله.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الوضوء/ ١٤٤/ فتح) مسلم في (الطهارة/ ٢٦٤/ عبد الباقي).

٥ ـ حديث: «كان النبي ﷺ إذا أراد أن ينام وهو جنب توضأ وضوءه للصلاة»(١).

وحديث آخر «كان ﷺ ينام وهو جنب من غير أن يمس الماء»(٢) أي: بغير غسل ولا وضوء، فظن البعض أن هذا من التعارض بين الأحاديث، ولابد من قبول أحدهما دون الآخر.

وكيف يكون هذا؟ حديث يفيد أن النبي ﷺ كان يتوضأ من جنابة قبل أن ينام، والآخر ينفي هذا بأنه كان ﷺ لا يمس الماء!!

نقول: وليس هناك تعارض ألبتة؛ لأن كل ذلك كان النبي ﷺ يفعله، بل نضيف عليه أنه كان ﷺ يغتسل أيضًا، قبل أن ينام، وكان هذا غالب فعله ﷺ.

ولكنه من أجل أن يُشَرِّع لأمته، ويترفق بهم، فكان يعلمهم أنه إذا تكاسل الإنسان عن الاغتسال قبل النوم وهو على جنابة، فيكفيه أن يتوضأ استحبابًا؛ ليكون الوضوء حفاظًا عليه من أن يقربه شيطان أثناء نومه، ويكون هذا لفترة موقوتة حتى يستيقظ من نومه لصلاة الليل، أو لصلاة الفجر، وإن عجز عن الغسل والوضوء لسبب أو آخر، كأن غلبه النوم، أو اشتد البرد، ولم يجد ما يسخن به الماء أو نحو ذلك، فلا حرج ولا بأس.

ومن هنا فقد فعل النبي ﷺ كل هذه الصور تشريعًا لأمته، وتخفيفًا على أمته، ويكون الاغتسال قبل النوم لمن أجنب، هذه الفضيلة، والنوم من غير غسل، ولكن مع الوضوء، يكون رخصة، ومن غير وضوء ولا اغتسال يكون توسعة على الأمة ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وترون أن كل هذه الحالات تعتري أي إنسان منا، ويختلف حاله حسب نشاطه أو تعبه، كما يختلف باختلاف فترة شبابه عن شيخوخته، وكذا يختلف باختلاف فصل

(١، ٢) صحيح: انظر الفقرة رقم (١٠) من «آداب الزفاف» للشيخ الألباني

الصيف عن الشتاء، فما أعظم هذا الدين، وما أعظم النبي محمد ﷺ الذي فعل كل هذا للتيسير على بأمته، وإلا فهو ﷺ الذي لا يكسل أبدًا «**وتنام عيناه ولا ينام قلبه**»[1] وهو ﷺ الذي جامع نساءه في ليلة، يغتسل عند كل واحدة منهن غسلاً مستقلاً.

وكان يكفيه غسلاً واحدًا، وكان ﷺ لا يسرف في ماء وضوئه ولا اغتساله، ولا يجد حرجًا في ذلك؛ وإنما فعله هذا ﷺ على سبيل التشريع، وهذا المعروف بأنه اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد، ولذلك لما سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها: أكان النبي ﷺ يغتسل قبل أن ينام، أم بعد أن يستيقظ؟ فقالت: «كل ذلك كان ﷺ يفعله - كان يجامع أهله ثم يغتسل قبل أن ينام، أو يتوضأ ثم ينام، وربما نام دون أن يمس الماء».

* * *

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الجمعة/ ١١٤٧/ فتح) مسلم في (صلاة المسافرين/ ٧٣٨/ عبدالباقي).

٦ ـ قال ﷺ: «**أيما إهاب دبغ فقد طهر**»[١].

وجاء في الحديث: أنه مر النبي ﷺ بشاة ميتة، فقال: «**ألا انتفعوا بإهابها**»[٢] يعني: بجلدها مع أنه ﷺ قال: «**لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب**»[٣].

فهذا أمر ظاهره التناقض، فكيف ذلك؟

نقول: لكن الأمر ليس فيه أي تناقض عند فهم المسألة، وذلك أن الإهاب هو الجلد الذي لم يدبغ، فقوله ﷺ «**لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب**» أي: لا تنتفعوا بجلدها قبل أن يدبغ، كما لا تنتفعوا بعصبها الذي لا يدبغ، ولذلك قرن ﷺ بينهما.

ويبقى حديث النبي ﷺ «**أيما إهاب دبغ فقد طهر**» يكون عامًّا، في جلد الذبيحة إذا دبغ، فيطهر، وكذلك جلد الميتة إذا دبغ أيضًا فإنه يطهر وينتفع به، ولذلك جاءت رواية للحديث مفسرة «**ألا أخذوا إهابها فدبغوه وانتفعوا به**».

إذن الذي لا ينتفع به هو الإهاب أي: الجلد قبل أن يدبغ، فإذا دبغ زال عنه هذا الاسم، وبالتالي لا تناقض بين الحديثين «**ألا انتفعوا بإهابها**» و «**لا تنتفعوا من الميتة بإهاب**» بعد وضوح المعنى، بفضل الله تعالى.

وأما الانتفاع بالجلد، فكما هو مشاهد ينتفع به في تصنيعه كالحقيبة والنعل.

وينتفع به في متاع البيت كالقربة للبن والماء، والغربال للقمح والشعير، وكذلك للجلوس عليه، وفراشه، والصلاة عليه، ونحو ذلك.

وطهارته بدبغه، كما في الحديث الأول: «**أيما إهاب دبغ فقد طهر**» والحمد لله رب العالمين.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (الحيض/ ٣٦٦/ عبد الباقي) بلفظ قريب.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الزكاة/ ١٤٩٢/ فتح)و مسلم في (الحيض/ ٣٦٣/ عبد الباقي).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود في (اللباس/ ٤١٢٨)، والترمذي في (اللباس/ ١٧٢٩)، والنسائي في (الفرع والعيرة/ ٤٢٤٩ ـ ٤٢٥١/ أبو غدة)، وابن ماجه في (اللباس/ ٣٦١٣) وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٣٨).

٧ ـ قال ﷺ: «**إذا انقطع شسع نعل أحدكم، فلا يمش في نعل واحدة**»[١].

وفي الحديث: «انقطع شسع نعل رسول الله ﷺ فمشىٰ في النعل الواحدة حتىٰ يصلح الأخرىٰ»[٢].

قالوا: حديثان ظاهرهما التعارض، ففي الوقت الذي نهىٰ ﷺ عن المشي في النعل الواحدة، يمشي هو في النعل الواحدة ـ إذا صح الحديث ـ فكيف ذلك؟

والإجابة علىٰ هذه الشبهة أن الحديث الأول فيه نهي عن المشي في النعل الواحدة، حين ترىٰ الرجل لبس واحدة، وأمسك الأخرىٰ بيده، وصار يمشي كالأعرج، فهذا أمر يفحش ويقبح إذا فعله الإنسان فعلاً طويلاً، ومشىٰ علىٰ تلك الحال مشيًا كثيرًا، فهو أمر منكور ويستهجنه الناظر إليه، وهو منهي عنه طبعًا، ويؤذي واقعًا، فنهىٰ عنه ﷺ شرعًا، والنهي علىٰ سبيل الكراهة.

وأما الذي ورد عن النبي ﷺ أنه فعله، فقد انقطع شسع نعله، فمشىٰ خطوات يسيرة حتىٰ يصلح الأخرىٰ، وكان قريبًا من البيت، فربط النعل بشيء، فلما دخل بيته أصلح النعل التي قطعت، وكان من تواضعه ﷺ أنه كان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويقم بيته، ويعين أهله، وينظم داره، فيرفع هذه، ويضع تلك، كما ورد عنه ﷺ.

فإذا فهم الإنسان الفرق بين المشي اليسير، الذي يكون من جنس المباح، كما فعله ﷺ وبين المشي الكثير في النعل الواحدة، كما ورد فيه نهي النبي ﷺ، فمن هنا لا يكون هناك تعارض بين الحديثين.

* * *

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (اللباس/ ٥٨٥٥/ فتح)، مسلم في (اللباس/ ٢٠٩٧/ عبد الباقي).

(٢) **لا يصح**: كما في «موسوعة المناهي الشرعية» (٣/ ٢٣٧).

٨ - وفي كتب العقائد نجد هذه الأحاديث التي يوهم ظاهرها التعارض في الأحكام:

يقول ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**»(١).

كما يقول ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب النهبة حين ينهبها وهو مؤمن**»(٢).

وقال ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة**»، قال أبو ذر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق**» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق**» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق، رغم أنف أبي ذر**» فخرج أبو ذر يقولها، وهو يقول: رغم أنف أبي ذر(٣).

فهنا نجد في هذه الأحاديث ما يوهم التعارض، كيف لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، أو مثقال ذرة من كبر، مع حديث: «من قال: **لا إله إلا الله دخل الجنة..**» وإن زنى وإن سرق، فالكبر ذنب يحرم دخول الجنة، والزنا والسرقة، وهما أقبح منه وأعظم جرمًا، يدخل صاحبهما الجنة، مع كلمة التوحيد، وكذا قالها من به كبر، فكيف ذلك؟!

وكيف: لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، مع نفي الإيمان عن الزاني والسارق والمنتهب وشارب الخمر؟

وكذا نجد أحاديث على نحو هذا «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**».

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (الإيمان / ٩١/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (المظالم/ ٢٤٧٥/ فتح)، مسلم في (الإيمان/ ٥٧/ عبد الباقي).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري في (اللباس/ ٥٨٢٧/ فتح)، مسلم في (الإيمان/ ٩٤/ عبد الباقي).

«**لا يدخل الجنة قتات**» أي: نمام وذلك مع أحاديث: «**من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة**» وما في معناه، فهل هذا تعارض؟!

والجواب: ليس بين هذه الأحاديث وما في معناها تعارض، لأنه معلوم في دين الله، وفي سنة رسول الله ﷺ أنه يوجد المطلق والمقيد في الآيات والأحاديث كما يوجد العام والخاص.

فهنا عندنا أحاديث مطلقة، وأحاديث مقيدة، وليست على ظاهرها الذي يوهم التناقض، فحين قال النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» معناه أنه لا ينبغي أن يدخل الجنة متكبر، أو كان من الممكن أن يكون هذا حكمه وذاك شأنه؛ لأن الكبر لا يكون إلا لله عز وجل، لا ينازعه فيه أحد من عباده إلا قصمه الله.

وليس معنى الحديث أنه لا يدخل الجنة إطلاقًا؛ لأن الأحاديث الأخرى بينت أنه وإن دخل النار بسبب الكبر، أو قطيعة الرحم، أو الغيبة والنميمة، أو زنا أو سرقة أو شرب خمر أو كذا أو كذا . . . . في النهاية «سيخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» ويدخل الجنة، فنصوص الوعد والوعيد منها المطلق ومنها المقيد، ويجب الجمع بين النصوص، وفهمها في سياق بقية الأدلة.

وكل الأدلة في هذا الباب تندرج تحت قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**...﴾ [النساء: ٤٨].

فالأحاديث التي فيها «**لا يدخل الجنة..**» بمعنى: لا ينبغي أن يدخل الجنة، أو لا يدخل الجنة في أول الأمر، أو يدخل النار بذنوبه، ثم يخرج منها بما بقي معه من إيمان، وقد يندرج تحت المشيئة فلا يدخل النار أصلاً، وقد يشفع فيه شفيع مطاع، كقول النبي ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة، وإني قد اختبأت**

دعوتي، شفاعة لأهل الكبائر من أمتي»، فهي نائلة - إن شاء الله - من مات منهم لا يشرك بالله شيئًا[١] .

فتكون الأحاديث ليست على إطلاقها؛ وإنما مقيدة بالمشيئة .

وقوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن..**» الحديث .

لا يراد به نفي الإيمان بالكلية؛ وإنما يرتفع عنه الإيمان حين فعلته التي فعلها، وأثناء تلبثه بها . أو إذا ارتفع عنه الإيمان بمعناه أو حقيقته، بقي له الإسلام، وبقي معه التوحيد، وهنا يندرج تحت الحديث: «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة**» . . . «**وإن زنى وإن سرق**»، وبما بقي معه من شعب الإيمان الأخرى .

ويرتفع الإيمان حين المعصية، وأثناء التلبث بها، وقبل التوبة منها، ثم يعود إليه بعد التوبة، وما جاء من الحديث في مثل قوله ﷺ: «**ليس منا...**» .

كقوله ﷺ: «**ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»[٢] .

وكذلك «**ليس منا من بات شبعانًا وجاره جائع**»[٣] ونحو ذلك من الأحاديث .

فمعناه ليس نفيًا لأصل الإيمان، وإنما هو نفي لكمال الإيمان .

كقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه**»[٤] .

وكذلك: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»[٥] .

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (الإيمان/ ١٩٩/ عبد الباقي) .

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الجنائز/ ١٢٩٤/ فتح)، مسلم في (الإيمان/ ١٠٣/ عبد الباقي) .

(٣) **صحيح**: وهو في «صحيح الجامع» (٥٣٨٢-٥٥٠٥) .

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الإيمان/ ١٣/ فتح) مسلم في (الإيمان/ ٤٥/ عبد الباقي) .

(٥) (**ضعيف المبني صحيح المعنى**): أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٤/ ٣٦٩)، البغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٣)، وضعفه الشيخ الألباني في «المشكاة» (١٦٧) وقبله الإمام ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» .

ولما سئل ابن عباس - رضي الله عنهما - عن ذلك: ما معنى لا يؤمن؟ أيكفر؟ قال: لا. لا يؤمن أي لا يؤمن»، ولا تكون بمعنى أنه يكفر، وإنما هو نفي لكمال الإيمان وحقيقته.

كما لو قال ﷺ: «**ثنتان في أمتي من الكفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت**»[١].

وقوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»[٢] ونحو ذلك من الأحاديث، فهي لا تدل على الكفر الأكبر المخرج من الملة بالكلية، وإنما هو الكفر العملي الذي لا يخرج من الملة، والذي هو - كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

* * *

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (الإيمان/ ٦٧/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (العلم/ ١٢١/ فتح)، مسلم في (الإيمان/ ٦٥/ عبد الباقي).

٩ ـ قال رسول الله ﷺ: **«من ترك قتل الحيات مخافة الثأر فقد كفر»**[١] .

قالوا: كيف يتفق ذلك مع قول النبي ﷺ: **«من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»**، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: **«وإن زنى وإن سرق»** الحديث.

فإذا كان الأمر هكذا مع الزنا والسرقة وهما من الكبائر، ولا يكفر المرء بإتيانهما، في ذات الوقت الذي يكفر فيه من ترك قتل الحيات مخافة الثأر، فكيف ذلك؟!

هذه هي الشبهة، والزعم بوقوع التناقض.

والرد على ذلك: ليس العمل كالاعتقاد، كما أنه ليس الكفر الوارد في الحديث هو الكفر الأكبر المخرج من الملة؛ وإنما هو كفر دون كفر، ومثاله في السنة قوله ﷺ: **«من حلف بغير الله فقد كفر»**[٢]، **«سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»**[٣]، **«من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»**[٤]، **«من أتى حائضًا أو امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»**[٥] وأمثال هذا من الأحاديث التي عُلم أنها من الكفر العملي الذي لا يخرج من الملة؛ وإنما تدل على خطورة هذه الذنوب، وأنها من الكبائر، بل إن كبيرة لا تذكر فيها كلمة الكفر، لهي أهون من كبيرة اقترنت بالكفر.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في (الأدب/ ٥٢٤٩)، النسائي في (الجهاد/ ٣١٩٣/ كبرى) بلفظ: «اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف ثأرهن فليس مني» وهو في «صحيح الجامع» (١١٤٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود في (الأيمان/ ٣٢٥١) الترمذي في (النذور/ ١٥٣٥) وهو في «صحيح الجامع» (٦٢٠٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الإيمان/ ٤٨/ فتح)، مسلم في (الإيمان/ ٦٤/ عبد الباقي)

(٤) **صحيح**: انظر تخريج أبي داود والترمذي التالي.

(٥) **صحيح**: أخرجه أبو داود في (الطب/ ٣٩٠٤)، والترمذي في (الطهارة/ ١٣٥)، وابن ماجه في (الطهارة/ ٦٣٩) وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٠٠٦).

وهذه الكبائر، التي اقترنت بكلمة الكفر - في غالبها - اعتقاد جاهلي، أو فعل جاهلي.

أشارت إلى ذلك كلمة الكفر التي دلت على أن هذه الاعتقادات أو الأفعال إنما هي للكافرين وليست للمسلمين، وأن أصحاب الجاهلية قبل الإسلام كانوا يفعلونها، ولا ينبغي لمسلم أن يتشبه بهم.

والذي لا يقتل الحيات مخافة الثأر اعتقاد جاهلي، حيث كان يعتقد أناس أن قتل الحيات يجعلها تثأر لنفسها، أو جنس الحيات يثأر لها، أو أن هذه الحيات قد تكون من الجن، فلذلك كانوا يخشونها، ويعتقدون ضررها، ويتركون الحيات لهذه الأسباب.

فلما كان ذلك شائعًا في الجاهلية، أراد ﷺ أن يبطل ذلك، وأن يرد عليه بهذا الحديث، فالحديث ردٌّ لشائعة، وإنكار لخرافة.

وترك الحيات دون قتل ليس ذنبًا عظيمًا وليس كفرًا؛ وإنما الاعتقاد بأنها تثأر لنفسها هذا هو الباطل، الذي لا ينبغي تصديقه، كما لا ينبغي التصديق بالنجوم والكواكب، ولا الكهنة والعرافين.

فهذا الاعتقاد يورث الكفر العملي الذي لا يخرج من الملة حتى تقام الحجة على صاحبها بشروطها ومواصفاتها.

وأما حديث . . «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة... وإن زنى وإن سرق...**» الحديث فقد سبق بيانه ومعناه أنه قد يتوب، أو يشفع فيه شفيع مطاع، وقد يدخل في نطاق ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ وقد تكون له حسنات عظيمة، وقد يبتلى بمصائب كبيرة، وقد يدخل النار لكن لا يخلد فيها، بل يدخل الجنة بما بقي معه من إيمان. ولله الحمد.

١٠ ـ قال ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر**»[١].

وفي رواية: «**لا عدوى ولا طيرة، وفر من المجذوم فرارك من الأسد**»[٢].

وقال ﷺ: «**لا يوردن ممرض على مصح، ولا يوردن ذو عاهة على مصح**»[٣].

وجاء رجل مجذوم يريد أن يبايع النبي ﷺ على الإسلام، فأوقفه عند مدخل المدينة، وأرسل إليه قائلاً: «**إنا قد بايعناك**»[٤].

وذلك مع ورود حديث آخر «**أن النبي ﷺ جلس مع مجذوم فأكل معه**»[٥] فكيف ذلك؟

والجواب على تلك الأحاديث التي أوهمت التعارض، أنه ينبغي التفرقة بين الأخذ بالأسباب، وبين اليقين والتوكل على الله، فهناك أسباب، وهناك ما وراء الأسباب، وبيان ذلك أن الأسباب لا تجدي وحدها، ما لم يكن إذن الله تعالى ومشيئته من وراء ذلك.

فقوله ﷺ: «**لا عدوى..**» قال العلماء: لا عدوى إلا بإذن الله، أي: لا عدوى بذاتها، ولا تكون العدوى من نفسها، وإن كانت العدوى قائمة وموجودة، وعليك أن تأخذ بأسباب الحيطة والحذر والتوقي أو الوقاية، ولذا قال: «**وفر من المجذوم فرارك من الأسد**» فلا ينبغي أن تعتقد أن الأسباب وحدها تعمل، ولذلك لما ادعى أعرابي أن الجمل الأجرب أعدى بقية الإبل،

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الطب/ ٥٧١٧/ فتح)، مسلم في (السلام/ ٢٢٢٠/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح**: علقه البخاري في (الطب/ باب الجذام) ووصله أحمد، وهو في «صحيح الجامع» (٧٥٣٠).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الطب/ ٥٧٧١/ فتح)، مسلم في (السلام/ ٢٢٢١/ عبد الباقي).

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم في (السلام/ ٢٢٣١/ عبد الباقي).

(٥) **ضعيف**: أخرجه أبو داود في (الطب/ ٣٩٢٥)، أخرجه الترمذي في (الأطعمة/ ١٨١٧)، ابن ماجة في (الطب/ ٣٥٤٢)، وهو في «ضعيف الجامع» (٤١٩٥).

قال له النبي ﷺ: «**فمن أعدى الأول**»[1] ؟

فالأسباب وحدها لا تفعل شيئًا، إلا إذا أراد الله لها أن تفعل، فالنار وحدها لا تحرق، والسكين وحدها لا تذبح، والماء وحده لا يجري، وإلا فما الذي منع النار أن تحرق سيدنا إبراهيم، والسكين أن تذبح سيدنا إسماعيل، وأوقف الماء عن الجريان لسيدنا موسىٰ عليهم السلام؟

إنه الله - سبحانه وتعالىٰ - مسبب الأسباب، فوجب الأخذ بالأسباب «**فر من المجذوم ...**» واللجوء إلىٰ الله تعالىٰ مسبب الأسباب بالاعتقاد بأنه «**لا عدوى..**» إلا بإذن الله تعالىٰ.

لذلك فالأخذ بالأسباب واجب، وتركها معصية، والاعتماد عليها شرك.

وقوله ﷺ: «**لا يوردن ممرض على مصح، ولا يوردن ذو عاهة على مصح**».

بمعنىٰ من عاد مريضًا فلا ينبغي أن يحتك به، إذا كان مرضه معديًا، أو لا تقترب من نَفَسه، فلربما حمل رذاذ الفم عدوىٰ تنتقل من المريض إلىٰ الصحيح، إذا أراد الله ذلك، فكان علىٰ الإنسان أن يأخذ بأسباب الوقاية، وقدر الله نافذ، وهو لا يتنافىٰ مع الأخذ بالأسباب، كما جاء في الحديث «يا رسول الله: أرأيت رقىٰ نسترقي بها، ودواء نتداوىٰ به، أيمنع ذلك قدر الله؟ قال: «**هو من قدر الله**».

فنفر من قدر المرض إلىٰ قدر الصحة، ومن قدر البلاء إلىٰ قدر العافية.

ونأخذ بالأسباب، ولا نعلم ما في قدر الله، ونعتمد علىٰ الله، ونجعل اليقين علىٰ الله تعالىٰ، والله تعالىٰ عند حسن ظن عبده به، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

والأحاديث - علىٰ الجملة - دلت علىٰ عدم العدوىٰ، وفي ذات الوقت أفادت وجودها والحذر منها.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الطب/ ٥٧١٧/ فتح)، مسلم في (السلام/ ٢٢٢٠/ عبد الباقي).

فيقول الطب في هذا كلمته حيث أفاد الأطباء بأنه لا تناقض في أحاديث النبي ﷺ؛ لأن الأمراض تنقسم على العموم إلى قسمين: أمراض غير معدية، وهي الكثيرة المنتشرة.

وأمراض معدية، وهي قليلة، تكون لعامل وراثي ونحوه.

فإذا قسمنا الأحاديث في هذا الباب على جملتها، فهي قسمان، والأمراض على جملتها قسمان، فالأحاديث التي قالت: «**لا عدوى...**» دلت على الأمراض غير المعدية.

وكذا حديث: «**فمن أعدى الأول**»؟

وأما قوله: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**» فهي إشارة صريحة بأن مرض الجذام معدٍ، وهو كذلك، فهذا وما في معناه يدل على القسم الثاني من الأمراض، وهو الأمراض المعدية، وهذه ينبغي الحذر منها، وقوله ﷺ: «**لا يوردن ممرض على مصح**» إعجاز طبي سابق لما عُرف في العصر الحديث «بالحجر الصحي» وكلامه ﷺ في هذا الباب إعجاز طبي وعلمي يشهد بصدقه ﷺ ورسالته، وتأييد الله له بأن علمه ما لم يكن يعلم، حيث كان هذا الإخبار عن تقسيم الأمراض إلى معدية وغير معدية، في وقت لم يكن الطب قد تقدم ولا قُسِّم.

وأنه ينبغي على المسلم أن يوقن بأن الأمر كله لله، وأن الأسباب وحدها لا تكفي.

وقد علم أن مرض «الزكام» أو «الانفلونزا» من الأمراض المعدية، ويذهب جماعة عند من أصيب بها، فتخرج الجماعة أو المجموعة من عنده، وقد أصيب واحد بالزكام، دون الآخرين، فإذا قال: أخذت الزكام عن طريق فلان، فنقول له: ولماذا لم تأخذها بقية المجموعة، إذا كانت العدوى بذاتها؟!

ويقول العلم أيضًا: إن كل إنسان تنتشر على مسام جسمه «البكتريا» غير

المرئية، ولا تكاد تُرىٰ إلا إذا كُبّرت بالمجاهر آلاف المرات من أجل أن ترىٰ.

وطبيعة هذه البكتريا أنها هادئة مسالمة، ولكنها في يوم من الأيام تنقلب إلىٰ عدوانية إجرامية، فتتحول إلىٰ «فيروس» يدخل الجسم فيفتك بالإنسان.

يقول الأطباء: لا نعرف لماذا هي هادئة مسالمة، ولماذا هي انتقلت إلىٰ عدوانية شرسة؟ ومتىٰ تكون هادئة مسالمة؟ ومتىٰ تكون عدوانية شرسة؟

هذا أمر لا نعلمه، وليس بمقدورنا، كما أنه ليس بمزاج البكتريا؛ وإنما من وراء ذلك «الله سبحانه وتعالىٰ».

فكل البشر تسكن في أجسامهم «البكتريا» وتكون بالنسبة لهم من النوع الهادي المسالم، فإذا أراد الله له مرضًا انتقلت واحدة من البكتريا إلىٰ بكتريا عدوانية مهاجمة، فتهاجم الجسم فيقع المرض بإذن الله.

وهناك نوع ثالث من البكتريا يقف علىٰ جسم الإنسان فيعطيه حصانة من المرض، فهذه ثلاثة أنواع من البكتريا (بكتريا هادئة مسالمة، بكتيريا عنيفة شرسة، بكتريا للحصانة والمناعة ضد المرض).

وهي هي، الأولىٰ المسالمة هي التي تكون مهاجمة، وهي التي تكون حصانة ومناعة، أفيكون هذا بإذن البكتريا أم بإذن الله تعالىٰ وحده؟

ولذلك فالبكتريا كما تكون داء تكون دواء، وكما تكون دواء تكون داء، وليس ذلك إلا بإذن الله وحده.

ومن جنس المرض، يؤخذ مصل التطعيم للوقاية منه، ومن البكتريا ما هو نافع وما هو ضار، هذا كلام العلم، وتقسيم الأطباء.

ويبقىٰ أن نوقن بأن ـ الله سبحانه ـ وتعالىٰ هو الذي يجعل من الداء دواء ومن الدواء داء، وأن نأخذ بالأسباب، ونعتمد علىٰ رب الأسباب، جل في علاه ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

١١ ـ قال ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر ...»**[١] .

كما قال أيضًا: **«أنا سيد الأولين والآخرين ولا فخر...»** .

وفي ذات الوقت قال ﷺ: **«لا تفضلوني على يونس بن متى ولا تخايروا بين الأنبياء»**[٢] .

فكيف ذلك؟ أليس هذا من التناقض؟!

نقول: لا . ليس الأمر كذلك؛ لأنه لكل مقام مقال .

فقوله : **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»**، وكذا **«أنا سيد الأولين والآخرين ولا فخر»**، وما في معناهما، فهذا هو الحق، وتلك هي الحقيقة التي يتحدث بها النبي ﷺ من باب ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ متحدثًا بنعمة الله عليه، وما تفضل الله به عليه، فقال: **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»** وبما أن هذا الفضل لا دَخْل للنبي محمد ﷺ فيه، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء وليس مرتبطًا بسبب من الأسباب، فمن ثم ليس للناس أن يخايروا ويفاضلوا بين الأنبياء، وهنا قال: **«لا تفضلوني على يونس بن متى...»** .

لأن الفضل فضل الله يؤتيه من يشاء، ولا دخل لي فيه؛ وإنما هو تفضيل الله، فمن ثم **«لا تفضلوني»** لأنه ليس من قبلي، وليس من حقكم، وإنما هو محض فضل الله تعالى .

كما أن قوله ﷺ: **«لا تفضلوني على يونس بن متى»** إنما هو على سبيل التواضع، وهضم النفس، فالحديث الأول في مجال التحدث بنعمة الله **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»** .

---

(١) **صحيح:** هذا اللفظ أخرجه الترمذي في (التفسير/ ٣١٤٨)، ابن ماجه في (الزهد/ ٤٣٠٨)، وهو في «صحيح الجامع» (١٤٦٨).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء/ ٣٤١٦/ فتح)، مسلم في (الفضائل/ ٢٣٧٦/ عبد الباقي).

والحديث الثاني في مجال التواضع، قال: «**لا تفضلوني على يونس بن متى**».

ويذكر في سبب ورود الحديث الأول أن الصحابة جلسوا يتحدثون عما أعطى الله لإبراهيم، وموسى وعيسى . . . فأقرهم ﷺ على ذلك، وقال لهم: «**أما إني سمعت ما قلتم**». . ثم قال: « **وأنا سيد ولد آدم ولا فخر**»، وكذا «**أنا سيد الأولين والآخرين**» وذكر الحديث بطوله، كما هو في «الصحيحين» «حديث الشفاعة».

وأما سبب الحديث الثاني، حين جلس الصحابة يتحدثون عن فضل النبي محمد ﷺ.

وهنا ـ حتى لا يقعوا في الإطراء والمبالغة ـ قال لهم: «**لا تفضلوني على يونس بن متى، ولا تخايروا بين الأنبياء**» فكل مقام اقتضى ذكر شيء، قال فيه النبي ﷺ ما يناسبه، فلا تعارض ولا تناقض.

وأما تخصيص «يونس بن متى» بالذات، دون أن يذكر نبيًّا مشهورًا كإبراهيم أو موسى أو عيسى عليهم السلام؛ وإنما ذكر من دونهم في المنزلة، كأنه يقول لهم: إذا كان لا يجوز أن تفضلوني على يونس بن متى، فمن باب أولى لا تفضلوني على إبراهيم أو موسى أو عيسى.

هذا تواضع منه ﷺ وتعليم لأمته وتحذير من الغلو والإطراء.

فالحديث الأول على الحقيقية، والثاني على سبيل التواضع.

* * *

١٢ - ومن هذا الباب قال لهم: **«أنا أحق بالشك من أبي «إبراهيم»، ورحم الله «لوطًا» لقد كان يأوي إلى ركن مكين، ولو كنت مكان «يوسف» لأجبت الداعي»**[1]. لفظ الصحيح هكذا نحن أحق بالشك من ابراهيم إذ قال ربي أرني كيف تحيي الموتى، قال أو لم تأمن بعد؟ قال بلى ولكن كي يطمئن قلبي: ويرحم الله لوطًا. لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي.

وفي بيان هذا الحديث نقول: ما شك إبراهيم عليه السلام كما لم يشك نبينا ﷺ، ولما اعتبر بعض الناس قول إبراهيم عليه السلام ﴿ ... رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ... ﴾ [البقرة: ٢٦٠] شكًّا، فقد نفاه النبي ﷺ بهذا الحديث.

بل هو أسلوب ترقي، وأنتم تقولون: شك إبراهيم عليه السلام، ولم يشك نبينا.

لا، فأنا أحق بالشك من أبي إبراهيم - تواضعًا منه ﷺ - وكأنه يقول: كان من الممكن أن أشك، ولكن لم أشك، فكيف يشك أبي إبراهيم، أو هو: أنا ما شككت وأنا دون أبي إبراهيم، ولو وقع الشك؛ لكنت أحق به من أبي إبراهيم، أما وإنه لم يقع مني، فكيف يقع من أبي إبراهيم عليه السلام، وتكون العبارة تعليمًا للصحابة، وتواضعًا منه ﷺ.

ونحن نوقن أن إبراهيم - عليه السلام - ما شكّ أبدًا، وسؤاله عن كيفية إحياء الموتى؛ إنما هو انتقال من علم اليقين إلى عين اليقين، ولم يكن السؤال: هل أنت تحيي الموتى، بل: كيف تحيي الموتى وليس من رأى كمن سمع. فهو ترقٍ في الدرجة.

وقوله ﷺ: **«ورحم الله أخي لوطًا إنه كان ليأوي إلى ركن مكين»** «شديد».

في قصة إتيانه قومه، يريدون الفاحشة بضيفه، فوعظهم وحذرهم، ودعاهم إلى السبيل الذي شرعه الله لهم ﴿ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود: ٧٨] ونساء الأمة بنات النبي.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، ٣٣٧٢/ فتح)، مسلم في (الإيمان/ ١٥١/ عبد الباقي).

ولكنهم أصروا على موقفهم وقالوا: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩].

وهنا في ظل تلك الشدة والموقف العصيب، بحث لوط عن الأسباب بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] وكان يأوي إلى ركن شديد، فالملائكة معه، والله مؤيده، وهنا أفصح الملائكة عن أنفسهم فقالوا: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ...﴾ [هود: ٨١] الآيات.

فالنبي ﷺ يعلم أصحابه أن «لوطًا» - عليه السلام - كان يأوي إلى ركن شديد، وهو ركن الله جل وعلا، الذي لا يضام، ولكنه في شدته نسي عليه السلام أو أخذ يبحث عن الأسباب.

وقوله ﷺ: «**ولو كنت مكان أخي يوسف لأجبت الداعي**» وفيه بيان لفضل سيدنا يوسف، وصبره على البلاء، وثباته على المحنة، حيث سجن ظلمًا وعدوانًا، ومثل هذا المسجون ظلمًا إذا تكشف له بصيص من أمل، أو شعاع من نور يتشبث به، ويسرع في الخروج، ولكن يوسف عليه السلام تصبر وتحلم، حتى تتضح براءته، وتظهر حقيقته، ويعلم أنه ما سجن إلا ظلمًا.

فقوله ﷺ هذا يمتدح يوسف عليه السلام بقوله: «**لو كنت مكان يوسف لأجبت الداعي**» وهو من باب تواضعه ﷺ - أيضًا. ولله الحمد.

* * *

١٣ - قال رسول الله ﷺ: «**مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره**»(١).

وقال ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ...**»(٢).

وكذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تقوم الساعة وأحد يقول في الأرض: لا إله إلا الله**»(٣).

وقال: «**شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء**»(٤).

فكيف الجمع بين هذه الأحاديث التي توهم التناقض فيما بينها، والتعارض في معناها وأحكامها؟

والجواب: أنه لا تعارض ولا تناقض - بفضل الله تعالىٰ - لمن رزقه الله الفقه في الدين.

فعلم أن الخيرية في الأمة قائمة بقيامها، ومستمرة مع وجودها، وإن كانت النسب مختلفة بين الأول والوسط والآخر، كمًّا وكيفًا، لكن ستظل الطائفة القائمة علىٰ الحق ظاهرين عليه ولا تعدم الأمة خيريتها حتىٰ يأتي أمر الله.

وغربة الإسلام لا يفهم منها انتهاء الإسلام، بل مع الغربة عودة وقوة، كما وضحنا سلفًا - عند شرح حديث الغربة . . . وهكذا يظل أمر الإسلام قائمًا، ويبقىٰ الدين منتشرًا وظاهرًا علىٰ كل دين، لاسيما حين يخرج في الناس مهدي هذه الأمة الذي يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا.

و«حين ينزل فيهم «عيسىٰ ابن مريم» حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية»، «ويسلم النصارىٰ أو يقتلون، ثم يقتل الدجال» «ومن ورائه اليهود».

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي في (الأمثال/ ٢٨٦٩)، وهو في «صحيح الجامع» (٥٨٥٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في (الإيمان/ ١٤٦/ عبد الباقي).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٤٢١).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري في (الفتن/ ٧٠٦٧/ فتح).

وبذلك يتحقق قول الله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

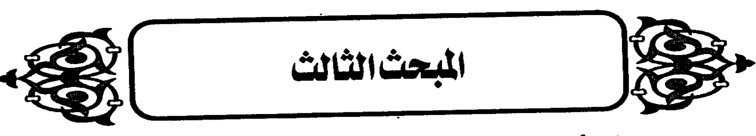
وبعد حين من الزمان، يكون فيه المسلمون بأسعد حال وأرغد عيش، مع القوة والعزة والنصر، يأذن الله تعالىٰ بمجيء ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين كنفس واحدة، فلا يبقىٰ بعدها إلا شرار الناس، لا يقولون: لا إله إلا الله، ولا يقولون: الله، الله، ويتهارجون في الدنيا تهارج الحمر، ويتسافدون في الطرقات، ويعبدون الأصنام، وعليهم تقوم الساعة، وهؤلاء هم المعنيون بالحديث «**شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء**».

وما في معناه كحديث «**لا تقوم الساعة وأحد يقول في الأرض: الله، الله**»[1] وغيره.

ومثله بيان ما جاء فيمن يعبد الأوثان من هذه الأمة، أو حين يكون على خمسين امرأة قيم واحد، وحيث لا دين، فهنا يكون الشر في كل مكان، وبذلك يتضح أنه لا تعارض بين الأحاديث، وإنما تحكي فترات زمنية مختلفة، فأين التعارض والتناقض؟!

* * *

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (الإيمان/ ١٤٨/ عبد الباقي).



المبحث الثالث

وهذه أحاديث يوهم ظاهرها التعارض مع العقل

١ - قـــولـه ﷺ: «إن الشـمـس تطلع بين قـرني شيطـان وتغرب بين قـرني شيطان»[١].

ووجه الشبهة: قال المعترضون: كيف جعلتم للشيطان قرونًا تصل إلىٰ السماء، وتسد عين الشمس وكيف جعلتم الشمس التي هي أكبر من حجم الأرض مرات بين قرني الشيطان؟

وكيف هذا مع أن الشيطان أمره يسير حيث يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم في العروق، فإذا كان كذلك فيكون لطيفًا جدًا، وصغيرًا جـدًا، ثم في ذات الوقت جعلتم له قرونًا تطلع الشمس بينها، فقد جعلتموه أعظم من كل شيء؟ فكيف ذلك؟!

وهذه الشبهة التي ذكرها المغرضون من المستشرقين ومَنْ لف لفهم من المستغربين والمتفلسفين، تدل علىٰ فهم ساذج لحديث النبي ﷺ، لأن قوله ﷺ: «**إن الشمس تطلع بين قـرني شيطان...**» ليس معناه القرون المتبادرة إلىٰ الذهن كقرون البقر أو الثور ونحو ذلك. وأن عظم هذه القرون من الأرض إلىٰ السماء، وتصبح الشمس بينها، فهذه سذاجة في الفهم، وضعف في العقل، وهو كلام غير مراد ولا مقصود.

وإنما قصد النبي ﷺ أن أناسًا كانوا يعبدون الشمس، فكان الشيطان يتمثل نفسه هو المعبود حين يجعل نفسه أمام قرص الشمس علىٰ نحو ما نراه، وحين

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (بدء الخلق/ ٣٢٧٣/ فتح)، مسلم في (صلاة المسافرين/ ٨٢٨/ عبد الباقي).

نراه نتخيله صغيرًا أشبه ما يكون بالكرة الكبيرة، فهنا يقف الشيطان أمام الشمس عند طلوعها وعند غروبها فيتمثل عبدة الشمس كأنهم يعبدونه هو.

ولذلك نهينا - نحن المسلمين - عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لهذه العلة، ولما في الإسلام من دقة في أمر التوحيد، والتحذير من كل مظاهر الشرك، ولو كانت غير مقصودة، والوقت الثالث الذي هو عندما تكون الشمس في كبد السماء، فلعلة أخرىٰ، كأن يشتد فيه الحر ويكون من فيح جهنم، ولذلك جاء في الحديث **«ثلاثة أوقات نهانا النبي ﷺ أن نصلي فيها، وأن نقبر فيها موتانا: عند طلوع الشمس حتى ترتفع، وعندما يقوم قائم الظهيرة والشمس في كبد السماء، وعند احمرارها حتى تغرب»**[1] ولهذه الأوقات تفصيل في الأحكام في كتب الفقه.

وهي تدور بين الكراهة لصلاة الفريضة، وكراهة التحريم للنافلة، ويستثنىٰ من ذلك تحية المسجد يوم الجمعة، فإنها تؤدىٰ في وقت الكراهة الذي يكون في بقية الأيام أي قبيل صلاة الظهر.

هذا، وقد علم أن هناك من يعبد الشمس، كالذين عبدوا الكواكب أيام سيدنا إبراهيم عليه السلام، وعبدت الشمس أيام «بلقيس» ملكة سبأ، حتىٰ هداها الله وقومها للإسلام علىٰ يد سيدنا سليمان عليه السلام، وفي زماننا - ومن قبل ذلك - عبد الشيطان، وهناك ما يسمىٰ «بعبدة الشيطان» في بلادنا وبلاد الكفار، وقد أراد النبي ﷺ التحذير من ذلك، كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

* * *

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صلاة المسافرين/ ٨٣١/ عبد الباقي).

٢ ـ قال ﷺ: «**إن الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة**»[(١)] قال المتفلسفون: ما ذنبهما؟ ولمَ يعذبان؟ لقد سخّرا فامتثلا، وما خالفا، فلا الشمس في يوم قالت لن أطلَع اليوم، ولا القمر خرج عن مساره، أو خالف أمر الله في شيء، فكلاهما طائع لله عز وجل، مسلم له، مسبح بحمده، فلم يكوران في النار؟!

هذه هي الشبهة، وهي تدل على فهم سقيم للحديث؛ لأنه إذا قيل: ما ذنبهما ولماذا أدخلا النار ولم يعصيا؟

نقول: ليس الأمر كذلك، وإلا لقال القائل أيضًا إذا قرأ أو سمع قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ...﴾ [التحريم: ٦] لقال هؤلاء الناس قد عرفنا أمرهم، منهم العصاة ومنهم الكفار، فما ذنب الحجارة؟! فتكون هذه أخت تلك، وهذا إن دل فإنما يدل على ضيق في الأفق، وسقم في الفهم، فإن صح الفهم أو اتسع الأفق أدرك السائل أو المعترض أن الشمس والقمر إذا كانا أصلاً من النار وقد عادا إلى أصلهما، فلا يقال: ما ذنبهما ولم يعذبان؟ كما لا يقال هذا عن الحجارة التي خلقها الله من النار وجعلها قابلة للاشتعال. فلا يقال ما ذنب الحجارة كما لا يقال إبليس خلق من النار، فكيف يعذب بالنار؟

وأنت ترى الإنسان أصل خلقته من الطين، ويعذب بالطين، فكيف ذلك؟

إن الإنسان تغيرت خلقته من طين إلى جسد وروح ولحم ودم...

وإبليس والجن والشياطين تغيرت خلقتهم كذلك إلى كائنات هوائية لا ترى، وقدرة الله تعالى وحكمته لا تحدها حدود، ولا تحجزها موانع، وما على الإنسان إلا أن يتعلم، ويفهم، ثم يُسلم فيَسلم.

* * *

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (بدء الخلق/ ٣٢٠٠/ فتح).

٣ ـ قــال ﷺ: «لا يبقى بعد مائة عام على ظهر الأرض يومئذٍ نفس (منفوسة) واحدة»[١].

قال المتحذلقون: كيف لا يبقىٰ بعد مائة سنة من ذِكْر هذا الحديث أحد علىٰ ظهر الأرض، وقد مضىٰ ما يزيد علىٰ ألف وأربعمائة سنة (١٤٠٠ سنة)، وهل هذا معناه قيام الساعة؟ وإن كان كذلك فكيف وقد سئل ﷺ عن الساعة: متىٰ الساعة؟ فقال: **«ما المسئول عنها بأعلم من السائل»؟!!**

وإن أريد به عمر الإنسان فهناك من زاد عمره علىٰ مائة سنة، فماذا إذن؟

والجواب علىٰ هذه الشبهة ببساطة أن النبي ﷺ كان يخاطب أصحابه بهذا الحديث، «لا يبقىٰ علىٰ ظهر الأرض منكم أحد بعد مائة سنة» أو «لا يبقىٰ بعد مائة سنة علىٰ ظهر الأرض منكم نفس واحدة» فهنا لفظة قد سقطت من قِبل الراوي أو أسقطها أصحاب هذه الشبهة عمدًا، وإلا فيوم حدث النبي ﷺ أصحابه بهذا الحديث، لم يَعِشْ أحد بعد مائة سنة، حتىٰ ولو عَمّر أحدهم أو بعضهم، فلن يتجاوز القرن الذي حدده النبي ﷺ، وهو خير القرون.

فمنهم من كان ابن ستين سنة، ومن كان ابن ثلاثين، أو حتىٰ عشرين سنة أو عشر سنين، فمعناه لا يتجاوز المائة سنة، وقد كان.

وما أريد به عمر الدنيا، أو خراب الأرض، ولا أريد به تحديد موعد الساعة، كما زعم الزاعمون.

وإلا فالساعة علمها عند ربي، وإن كانت قد اقتربت، لكن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون، وصدق الله ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٧].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (العلم/ ١١٦/ فتح)، مسلم في (فضائل الصحابة/ ٢٥٣٨/ عبد الباقي).

٥ - قال النبي ﷺ: «**إذا قام أحدكم من منامه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثًا، فإنه لا يدري أين باتت يده**»[١].

قال المتفلسفون: أما نحن فإنا ندري أين باتت يدنا، حيث بات بدننا، ولم تذهب بعيدًا، ولا سرحت ولا خرجت، ولا ذهبت هنا أو هناك، بل هي معنا لم تفارقنا.

والرد على هؤلاء الحمقى الذين يحاولون أن يجدوا في الدين أي مأخذ، أو في السنة أي مطعن، ويحاولون أن يلبسوا حماقاتهم مسوح العلم والعقل بمثل هذا الكلام، وذلك السؤال أين ستبيت يدنا وأين ستذهب؟

فنقول لهم: يا معشر . . . : هذا الكلام من النبي محمد ﷺ مليء بالأدب والحياء.

«**وقد كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها**»[٢] ولما كان ﷺ قد نشأ في أمة ما عرفت النظافة والطهارة إلا في ظل هذا الدين، فإنه قد يوجد من يعبث بيده أثناء نومه في النجاسة، كمن قطع بولته بيده، أو مسح منيه بعد الجماع بيده، أو من احتلم فعبثت يده في ثوبه الذي أصابه المني، أو راح يحك جسده، فأصاب موضع نجاسة، أو نحو هذا، وغير هذا أيضًا كالمرأة يبول عليها ابنها أو تعبث في نجاسته أثناء نومها دون أن تشعر، وأعتقد أن صورًا كثيرة يمكن أن تذكر في هذا الشيء، وتفصيل وبيان معنى «**فإنه لا يدري أين باتت يده**» مع قانون النوم الذي يختلف عن اليقظة، والذي لا يشعر الإنسان فيه بأشياء كثيرة يفعلها وهو نائم، ولربما مشى وهو نائم، أو تبول وقد غلبه النوم فلم يستنزه من بوله، وهناك من يتبول أثناء نومه تبولاً لا إراديًا.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الوضوء/ ١٦٢/ فتح) مسلم في (الطهارة/ ٢٧٨/ عبد الباقي).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في (المناقب/ ٣٥٦٢/ فتح)، مسلم في (الفضائل/ ٢٣٢٠/ عبد الباقي).

فكل هذه الصور وأمثالها وأضعافها موجود، أراد النبي ﷺ أن يعالجها بأسلوب حكيم، مليء بالأدب والحياء، كما أنه من جوامع الكلم.

فصلى الله على سيدنا محمد، الذي قال عبارة تناولت الماضي وعلمت الحاضر، وأفادت المستقبل، فهناك صور في الماضي قد اندثرت، وأخرى في الحاضر قد جدَّت، وصور ربما تجد في المستقبل لا نعلمها، كلها تندرج تحت هذه الجملة البليغة، والعبارة الحية **«فإنه لا يدري أين باتت يده»**.

والحديث الذي بين أيدينا ينطبق على من يريد أن يضع يده في إناء، هذا الإناء قد يكون للوضوء أو الاغتسال، وقد يكون للطعام، والإنسان لايدري أيضًا ما الذي مر بيده، فقد تكون مرت عليه دابة من دواب الأرض، وقد تكون ضارة، وهذا بخلاف أن يكون قد لعقها الشيطان، إذا بات الإنسان وفي يده أثر الطعام، وكم من طفل ينام بعد طعامه دون أن يغسل يده، بل رأينا في بلاد كثيرة أناسًا كبارًا لا يغسلون أيديهم من الطعام، وهذا غالب حال أهل البلد!! فلهذا ولغيره كان الأمر بغسل اليد قبل إدخالها في الإناء، وأما الذي لا يدخلها في الإناء فلا ينطبق عليه الحكم فلأسباب حسية أو أخرى معنوية، أو لحكمة قد تخفى علينا قال النبي ﷺ ذلك، ولم يبق إلا أن نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

* * *

٦ ـ قالوا: وهناك أحاديث أخرى تتنافى مع العقل، ولا يتقبلها وذلك مثل:

«من تقـرب إليَّ شبـرًا تقربت منه ذراعًـا، ومن تقـرب مني ذراعًا تقـربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»[١].

وكذلك: **«إن الله عز وجل خلق آدم على صورته»**[٢]

وحديث: **«لا تسبو الدهر فإن الله هو الدهر»**[٣].

وحديث: **«لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن»**[٤].

ونحوها من أحاديث تفيد التشبيه وتخدم المشبهة المجسمة، وينبغي النظر فيها أو تأويلها أو غيرَ ذلك.

ونقـــول: إن هذه الأحـاديث ليست على ظاهرها، ولا يجـوز النظر إليـها بحرفيتـها، ولا فهـمها على ما في أذهاننا، أو نعـرفه من أنفسنا، في أمر المشي والإسراع، والتشبيه.

وإن مثل هـذه الأحـاديث مصـروفة عن ظاهـرها، ومنهـا مـا يقبل التـأويل الصـحيح، كـما هو معـتقـد السلف الصـالح في تلك القضيـة التي هي «توحيـد الأسماء والصفات».

فنؤمن بهـا كمـا وردت على مراد الله تعالى، ومـا يتفق مع كـماله سبحـانه،

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري في (التوحيد/ ٧٤٠٥/ فتح)، مسلم في (الذكر/ ٢٦٧٥/ عبد الباقي).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري في (الاستئذان/ ٦٢٢٧/ فتح)، مسلم في (البر والصلة/ ٢٦١٢/ عبد الباقي).

(٣) **صحيح:** أخرجه البخاري في (التفسير / ٤٨٢٦/ فتح)، مسلم في (الألفاظ/ ٢٢٤٦/ عبد الباقي).

(٤) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وبنحوه أخرجه ابن ماجة في (الأدب/ ٣٧٢٧) بلفظ: «لا تسبوا الريح فإنها من روح الله. . .» وهو في «صحيح الجامع» (٧٣١٦) وانظر أيضًا للأهمية المثال الثالث في فصل الشبهات والجواب عنها من كتاب «القواعد المثلى» للشيخ العثيمين رحمه الله.

ونحن لا نعلم كنهها، ولا ندرك كيفيتها؛ لأننا لما جهلنا كنه الذات، جهلنا كنه الصفات، وأن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والأحاديث التي يوهم ظاهرها التشبيه والتمثيل أريد بها رد اعتقاد باطل كان الناس عليه، كمن كانوا يسبون الدهر أو يلعنونه، أو يسبون الريح.

وحديث: «**من تقرب إليّ شبرًا تقربت منه ذراعًا..**» مصروف عن ظاهره، وأريد به من أسرع في طاعة الله أسرع الله تعالىٰ في جزائه وكان أكرم في ثوابه، فأريد المعنىٰ، ولم يرد اللفظ، وهذا من التأويل المقبول؛ لأن الله - سبحانه - وتعالىٰ - كما علمت - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١].

وكذلك قيل في حديث: «**خلق آدم على صورته**»[1] أي: علىٰ نحو ما صوره الرحمن، بالهيئة التي هو عليها الآن، ولذلك لا يجوز ضرب الإنسان علىٰ وجهه إكرامًا لخلق الرحمن وتصويره للإنسان، سبحانه، فقد صورنا فأحسن تصويرنا ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾ [سورة آل عمران: ٦].

ولا يجوز إذا ذكرنا كلمة التصوير هنا أن تذهب إلىٰ التصوير المعروف في الأذهان، «الكاميرا» أو «التصوير الفوتغرافي» لأن قومًا ينظرون للأحاديث بهذه الحرفية، يمكن أن يفسروا الآية أيضًا ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ....﴾ بمثل ما في أذهانهم، ثم يقولون: فلماذا حرمتم التصوير إذن؟!

والقضية التي بين أيدينا يطول شرحها، وتفصيلها، فلتراجع في مظانها».

هذا، والأحاديث في هذا الباب كثيرة، اكتفينا بذكر ما تيسر لنا.

***

(١) صحيح: تقدم قريبًا جدًا.

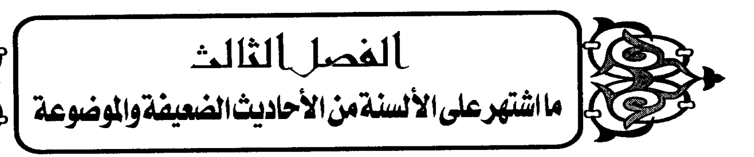




الفصل الثالث

ما اشتهر على الألسنة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة





الفصل الثالث
ما اشتهر على الألسنة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة

وكلامنا هنا على سبيل المثال، لا الحصر، فقد أُلفت في الأحاديث الضعيفة والموضوعة، مجلدات، ومسلسلات، وكيف لا؟ وهي تعد بالآلاف لا بالمئات، ومن ذلك؛ كتاب، «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني و «اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» للصنعاني، و«تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الموضوعة» للكناني، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» للألباني، و«الموضوعات» لابن الجوزي وكتاب«تمييز الطيب من الخبيث فيما اشتهر على ألسنة الناس من الحديث» للشيباني وغير ذلك.

ولكن نحن هنا نلفت نظر القارئ، و طالب العلم المبتدئ بهذا الشيء، حتى يدرك تلك الحقيقة التي عميت عليه، بسبب كثرة من يقول الأحاديث دون تحقيق أو تثبت، فكثيرون يتطاولون على النبي ﷺ فيقولون: قال رسول الله ﷺ.. وهو لم يقل، وكل من وجد حديثًا أو سمعه، قاله ووعظ به دون أن يتثبت، فعامة الناس عندهم كل ما قيل على الألسنة أو كتب في الكتب وقد سبقته تلك الجملة «قال رسول الله» يكون حديثًا.

لا.. بل هناك من كذب على النبي ﷺ وقال أحاديث ينسبها إلى النبي ﷺ، لأغراض مختلفة بين الكذابين، فمنهم من أراد هدم الدين، ومنهم من تملق للحكام، ومنهم من تعصب لمذهب، ومن أراد أن يروج لأمر أو سلعة، ومنهم من أراد الخير فلم يصبه، كمن قال: ما كذبت على النبي ﷺ وإنما كذبت له! ووضع أحاديث في فضائل سور القرآن، يحبب الناس في القراءة، و منهم، ومنهم.

وهؤلاء هم الذين عناهم النبي ﷺ بقوله: «**من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[1] فهذه الأحاديث تسمىٰ «الموضوعة» أي: المكذوبة علىٰ النبي ﷺ ووضعها أشخاص من قِبَل أنفسهم، ونسبوها إليه.

وهذه الأحاديث لا تذكر إلا علىٰ سبيل التنبيه عليها، والتحذير منها، ولو قالها الإنسان وهو يعلم أنها موضوعة، فهو أحد الكذابين علىٰ رسول الله ﷺ.

وأما الأحاديث الضعيفة، فهذا نوع آخر من الأحاديث، فَقَد شرطًا من شروط الصحة، مع احتمال نسبته إلىٰ النبي ﷺ، و لكن لفقدانه شيئًا من شروط الصحة حكم عليه بالضعف؛ لتبرئة ساحة النبي ﷺ من أن ينسب إليه شيء مشكوك في صحته، وقد قام بهذا الدور جهابذة العلماء المشهود لهم بالخير والعلم والصلاح، فيما سمي «علم السند» وهو القسم الثاني من علم الحديث «علم الحديث رواية، وعلم الحديث دراية».

ومعروف بعلم «الجرح والتعديل» وهو علم تميزت به هذه الأمة علىٰ غيرها، وتفوقت به الأمة علىٰ من سواها، ولا يستطيع أتباع دين ما، أن يثبتوا صحة ما عندهم من كتب أو تراث لفقدانهم هذا العلم، عدا هذه الأمة التي عرفت هذا العلم، فكتابها معروف السند، متصل، متواتر، رواه جمع عن جمع، في كل جيل وقبيل، مذ نزل به جبريل - عليه السلام - علىٰ قلب النبي محمد ﷺ وإلىٰ يوم الناس هذا، وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وسنة نبيها ﷺ صاحَبَها هذا العلم من البداية، مذ وجد من يشك في صحة كلامه من الدخلاء علىٰ الدين، وضعاف الإيمان، ونحوهم، فأطلقها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - صيحة مدوية: «سموا لنا رجالكم !!»

---

(١) صحيح متواتر: رواه سبعون من صحابة النبي ﷺ كما هو مذكور في «صحيح البخاري».

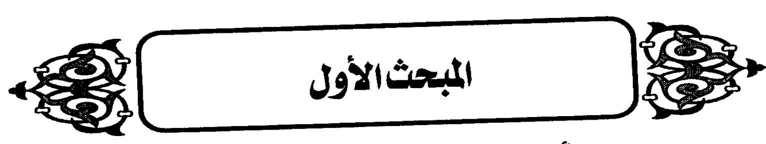
وبدأ الناس يتثبتون، وعرفت السلسلة بمثل: سمعت، أو رأيت أو حدثني فلان عن فلان - عن رسول الله ﷺ، بحيث لا يكون في السلسلة انقطاع، ولا يكون فيها من هو متهم، أو من يخلط، أو من هو متروك الحديث... إلخ.

فيما هو مدون في هذا العلم النفيس.

أما أن يبتلى هذا الزمان بمن لا يفرق بين حديث صحيح وآخر ضعيف، وربما موضوع وهو منسوب إلى أهل العلم، ومحسوب على العلماء، وربما كان من أكثرهم شهرة وإعلامًا - وذلك عن طريق أجهزة الإعلام - وبضاعته في الحديث مزجاة، لا يعرف تحقيق الحديث ولا يتثبت قبل أن يقول، فيجمع في علمه الغرائب، ويوقع الناس في الزيغ والضلال، سيما في العقيدة، لحديث اشتهر على ألسنة الناس أنه حديث، وهو ضعيف، أو موضوع، ولربما أدى هذا الحديث إلى الكفر أو الشرك بالله تعالى، أو الغلو في حق النبي محمد ﷺ بنفي بشريته مثلاً، وجواز التوسل به أيضًا، أو نحو ذلك، وغير ذلك.

وسنضرب لهذا أمثلة - سردًا، دون شرح أو تفصيل أو تعليق.

* * *



المبحث الأول

أحاديث موضوعة «مشهورة»

-«كنت كنزاً مخفيًّا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق، فبي عرفوني».

- «قبض الله قبضة من نوره وقال: كوني محمداً فكانت محمداً».

- «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر».

- «كم عمرك يا جبريل؟ فقال: لا أدري إلا أني رأيت نجمًا يخرج في السماء كل سبعين ألف سنة مرة، وقد رأيته سبعين ألف مرة، فقال: وعزة الله وجلاله إنه لأنا ذلك النجم يا جبريل»

- «توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم».

- «توسل آدم بالنبي ﷺ بقوله: اللهم بحق محمد إلا غفرت لي!»

- «إذا أعيتكم الأمور، فعليكم بأصحاب القبور»

- «كنت أنا و «علي» نوراً بين يدي الله قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق الله آدم قسم ذلك النور جزأين، جزء أنا و جزء علي».

- «ليلة أسري بي إلى السماء نظرت إلى ساق العرش الأيمن فرأيت كتاباً فهمته: محمد رسول الله أيدته بعلي ونصرته به».

- «يا علي: هذا جبريل يخبرني أن الله عز وجل زوجك فاطمة، وأشهد على تزويجها أربعين ألف ملك وأوحى إلى شجرة طوبى أن انثري عليهم الدر والياقوت، فنثرت عليهم الدر والياقوت، فابتدرت إليه الحور العين

يلتقطن من أطباق الدر والياقوت، فهم يتهادونه بينهم إلىٰ يوم القيامة».

ـ «من أراد أن ينظر إلىٰ إبراهيم في حلمه، وإلىٰ نوح في حكمه، وإلىٰ يوسف في جماله، فلينظر إلىٰ علي بن أبي طالب».

* * *

- «إن الله تعالىٰ قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بألف عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا : طوبىٰ لأمة ينزل هذا عليهم، وطوبىٰ لأجواف تحمل هذا، وطوبىٰ لألسن تتكلم بهذا».

- «لما أسري بي إلىٰ بيت المقدس مر بي جبريل بقبر أبي إبراهيم فقال : يا محمد انزل فصلِّ هنا ركعتين، ثم مر بي ببيت لحم فقال : انزل فصل هنا ركعتين فإن ها هنا ولد أخوك عيسىٰ، ثم أتي بي إلىٰ الصخرة فقال : يا محمد من ها هنا عرج ربك إلىٰ السماء» وذكر كلامًا طويلاً.

- «لما أسري بي إلىٰ السماء وانتهيت، رأيت ربي - عز وجل - بيني وبينه حجاب بارز، فرأيت كل شيء منه حتىٰ رأيت تاجًا مخرصًا من لؤلؤ».

- «إن لله لوحًا أحد وجهيه درة والآخر ياقوتة، قلمه النور، فبه يخلق، وبه يرزق، وبه يحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء في يوم وليلة»[١].

- «إن للقلوب صدأ كصدأ الحديد، وجلاؤها الاستغفار».

- «اشتدي أزمة تنفرجي»

- «التاجر الصدوق تحت ظل العرش يوم القيامة».

- «إذا لقيت الحاج : فسلم عليه وصافحه، ومره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته، فإنه مغفور له».

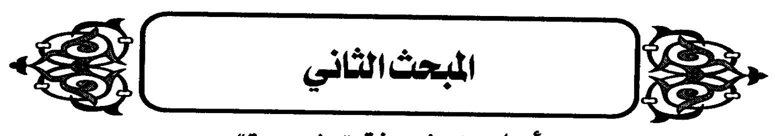
- «رجعنا من الجهاد الأصغر إلىٰ الجهاد الأكبر» (منكر)[٢].

* * *

---

(١) انظر بتوسع : الموضوعات لابن الجوزي، مع تخريجه لهذه الأحاديث، وكذلك التي تركنا تخريجها خشية الإطالة علىٰ القارئ، وإنما أردنا الإشارة فقط إلىٰ هذا الجانب من الأحاديث، ومالها من أثر سيئ في حياة الأمة.

(٢) مأخوذ عن «سلسلة» الأحاديث الضعيفة والموضوعة» للألباني.



المبحث الثاني

أحاديث ضعيفة «مشهورة»

وهذه ـ كما قلنا ـ يمكن أن تفوق الحصر ـ ولكن نذكر لها أدلة وأمثلة، ونجعلها في أكثر هذا النوع من الأحاديث الضعيفة المشتهرة على ألسنة الناس، ومن ذلك: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة».

ـ «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي إليك. . ».

حديث فاطمة بنت أسد. . وفيه: «اللهم إني أسألك بحقي وحق الأنبياء من قبلي. . . ».

ـ «حياتي خير لكم ومماتي خير لكم، في حياتي تحدثوني وأحدث لكم، وبعد مماتي تعرض عليّ أعمالكم. . ».

ـ «إنما بعثت معلمًا».

ـ «الحج جهاد، والعمرة تطوع».

ـ «من لم يصلِّ عليَّ، فلا دين له».

ـ «إياكم وخضراء الدِّمَن، فقيل: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء».

ـ «الحدة تعتري خيار أمتي».

ـ «بركة الطعام الوضوء قبله وبعده».

ـ «من أخلص لله أربعين يومًا، ظهرت ينابيع الحكمة على لسانه»، ضعفه الألباني، وقال ابن الجوزي: إنه موضوع.

ـ «من نام بعد العصر، فاختلس عقله، فلا يلومن إلا نفسه».

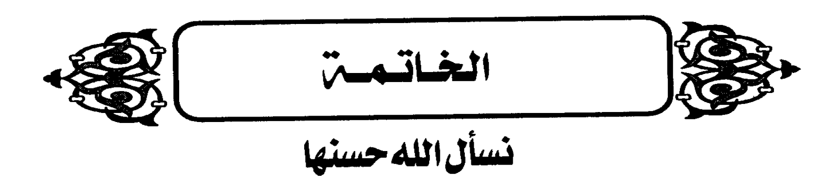
- «شهر رمضان معلق بين السماء والأرض، ولا يرفع إلى الله إلا بزكاة الفطر».
- «إن الله يحب عبده المؤمن الفقير المتعفف أبا العيال».
- «إذا استصعبت على أحدكم دابته، أو ساء خلق زوجته، أو أحد من أهل بيته، فليؤذن في أذنه».
- «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» (منكر جدًا).
- «نعم أو نعمت الأضحية الجذع من الضأن».
- «لا تنتفعوا من الميتة بشيء».
- «أدبني ربي، فأحسن تأديبي».
- «إن الله يحب الشاب التائب».
- «مسح العينين بباطن أنملتي السبابتين عند قول المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله.. ومن فعل ذلك حلت له الشفاعة».
- «قل ما يوجد في آخر الزمان درهم من حلال، أو أخ يوثق به» ضعيف جدًا أو موضوع.
- «إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه، فصدقوا، وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه، فلا تصدقوا به، وإنه يصير إلى ما جبل عليه».
- «استشفوا بما حمد الله به نفسه قبل أن يحمده خلقه، وبما مدح الله به نفسه».
- «الحمد لله» «وقل هو الله أحد» فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله».
- «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم».
- «احترسوا من الناس بسوء الظن».
- «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد».
- «ألا أدلكم على ما ينجيكم من عدوكم ويدر لكم أرزاقكم؟ تدعون الله ليلكم ونهاركم، فإن الدعاء سلاح المؤمن».

- «إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في أجله، فإن ذلك لا يرد شيئًا، ويطيب نفسه».
- «إن الله - تعالى - يُنزل على أهل هذا المسجد - مسجد مكة - في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة: ستين للطائفين، وأربعين للمصلين، وعشرين للناظرين».
- «لا تكثروا الكلام عند مجامعة النساء، فإن منه يكون الخرس والفأفأة».
- «من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أو وجبت له الجنة».
- «ليستمتع أحدكم بحله ما استطاع، فإنه لا يدري ما يعرض في إحرامه».
- «نهى أن يقام عن الطعام حتى يرفع».
- «كان إذا تغدّى لم يتعش، وإذا تعشى لم يتغد».
- «صوموا تصحوا».
- «سافروا تصحوا، واغزوا تستغنوا».
- «سافروا تصحوا وتغنموا».
- «لا تتمارضوا فتمرضوا، ولا تحفروا قبوركم فتموتوا»[1].

وبعد: فلقد أردت أن أتوسع في هذا الفصل بذكر مزيد من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وعمدت إلى ذلك بالفعل ولكن عدلت عنه وذلك لأني رأيت أنني سأنقل موسوعات كتبت في هذا الباب ولكن بدون تخريج لها، وهو أمر غير مُرضٍ عند أهل العلم فلذا اكتفيت بذكر تلك الأمثلة السريعة، وإحالة القارئ إلى التوسع في معرفة هذه الأحاديث مع تخريجها بالرجوع إليها في مظانها وقد ذكرت أهم عناوين مراجعها في أول الفصل والله الموفق لا رب سواه.

---

(١) انظر بتوسع: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني وفيها تخريج تلك الأحاديث.



الخاتمة

نسأل الله حسنها

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد الكائنات، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأزواجه وآل بيته، ومن تبعهم بإحسان، ما دامت الأرض والسموات، أما بعد.

فالحمد لله الذي وفقنا لهذا، وهدانا إليه، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله بأن وصلت إلى نهاية هذا الجزء من تلك الموسوعة المباركة - بإذن الله تعالى - والتي نرجو تمامها، ونرجو عموم النفع بها، كان هذا الجزء من موسوعة المفاهيم الخاطئة في حياة المسلمين، والذي هو بعنوان: «الأحاديث المقلوبة»، هكذا على الجملة، وإلا فالكتاب قد اشتمل على ثلاثة فصول رئيسية:

الأول منها: أحاديث صحيحة فهمت فهمًا مقلوبًا.

والثاني منها: أحاديث صحيحة يوهم ظاهرها التعارض.

والثالث منها: ما اشتهر على الألسنة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة «كنماذج وأمثلة».

فالثلاثة من جنس الأحاديث التي وضعت في غير موضعها، ولما كانت مثل هذه الأحاديث مع فهمها المقلوب، أو الاستدلال بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، كل ذلك أدى إلى تفرق الأمة، في وقت أحوج ما تكون إليه في اجتماع الكلمة، ووحدة الصف، كانت هذه اللبنة في البناء، وتلك الخطوة على الطريق، فنسأل الله التوفيق، والثبات حتى الممات!.

وما كان من خير وصواب فمن الله، والحمد لله، وما كان من خطأ أو شر فمني وأستغفر الله.

ورحم الله من قرأ الكتاب ففهمه واستفاد منه فدعا لي بخير، ، أو وجد فيه خللاً أو خطأ فنصحني وراسلني، ورحم الله امرأ أهدىٰ إليَّ عيوبي.

وجزىٰ الله كل من ساهم في هذا الكتاب خيراً، ونسأل الله لنا ولكم العفو والعافية، وحسن الخاتمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

أبو حفـــــص

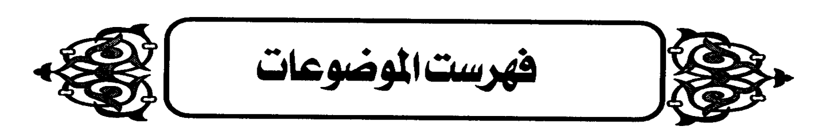
عمر بن عبد العزيز قريشي

في بنجلاديش



فهرست الموضوعات





فهرست الموضوعات

الفصل الثاني
أحاديث ظاهرها يوهم التعارض

